

الفوائد الكبير

في

اصول التفسير

للإمام الكبير

الشيخ العلامة الشاه ولي الله دهلوي

(١١١٤ - ١١٧٦ هـ)

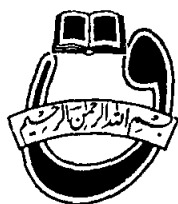
هذب تعريبه وعلق عليه

علامه سعيد احمد پالن پوري

الاستاذ بدار العلوم ديوبند

قد سمى كدخان

آرزو ریتاغ - کراچی



الفقه الكبير في اصول الفقه

للإمام الكبير
الشيخ العلامة والشيخ
(١١١٤ - ١١٧٦ هـ)

هَدَبَ تَعْرِيبَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
عَلَامَهُ سَعِيدُ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ
الاستاذ بدارالعلوم ديوبند

قد ربي كذا خان
آزاد بنگال - كراچی

المحتوى

• الحاجة إلى الترجمة الجديدة	٩	• استبعاد رسالة النبي صلى الله	
• ترجمة الإمام المصنف في سطور	١١	• عليه وسلم	٢٣
• علم التفسير: حده وموضوعه		• نموذج المشركون	٢٣
• وغايته وفضله ومعنى التفسير بالرأى	١٣	• ردُّ الإشراك	٢٤
• مقدمة الكتاب	١٥	• رد التشبيه	٢٥
• مقاصد الكتاب منحصرة في		• رد التحريف	٢٥
• خمسة أبواب	١٦	• رد استبعاد الحشر والنشر	٢٥
• الباب الأول في بيان العلوم		• الرد على منكرى الرسالة	٢٦
• الخمسة التي يدل عليها القرآن		• ذكر اليهود	٢٦
• العظيم نصًّا	١٦	• ضلالتهم	٢٦
• أسلوب القرآن الكريم في عرض		• بيان التحريف	٢٧
• العلوم الخمسة	١٧	• أمثلة التحريف المعنوى	٢٧
• لا يحتاج كل آية إلى سبب النزول	١٨	• بيان كتمان الآيات وأمثله	٢٩
• الفصل الأول في علم الجدل	١٩	• بيان الافتراء	٣٠
• ذكر المشركون	١٩	• سبب التساهل وارتكاب المناهى	٣١
• شعائر الملة الإبراهيمية	٢٠	• أسباب استبعاد رسالة سيدنا	
• شرائعها	٢٠	• محمد صلى الله عليه وسلم	٣١
• عقائدها	٢٠	• النبوة ومنهجها في إصلاح الناس	٣١
• ضلال المشركون	٢١	• اختلاف الشرائع كاختلاف	
• بيان الشرك	٢١	• وصفات الطبيب	٣٢
• بيان التشبيه	٢٢	• أنموذج اليهود	٣٢
• بيان التحريف	٢٢	• ذكر النصارى	٣٣
• جحود الآخرة	٢٣	• عقيدة التثليث والرد عليها	٣٣
		• أنموذج النصارى	٣٥

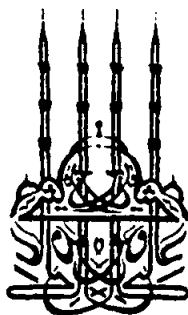
- عقيدة مصلوية المسيح والرد عليها ٣٥
- تحريفهم في بشارة " الفارقليط " ٣٦
- ذكر المنافقين ٣٦
- نفاق الاعتقاد ونفاق العمل ٣٦
- مظاهر نفاق العمل ٣٧
- الكلام حول قسمي النفاق ٣٨
- الغرض من ذكر أحوال المنافقين ٣٨
- في القرآن العظيم ٣٨
- نموذج المنافقين ٣٨
- القرآن كتاب كل عصر ٣٩
- الفصل الثاني في بقية مباحث العلوم الخمسة ٣٩
- بيان التذكير بآلاء الله ٣٩
- إثبات الذات وبيان الصفات ٤٠
- صفاته تعالى توقيفية ٤٠
- بيان آلائه تعالى وآيات قدرته ٤٠
- بيان التذكير بأيام الله ٤١
- ذكر من القصص ما هو الغرض منها ٤٢
- القصص المتكررة في القرآن ٤٢
- ما ذكرت من القصص مرة أو مرتين فقط ٤٣
- بيان التذكير بالموت وما بعده ٤٤
- بيان علم الأحكام ٤٥
- دور التشريع الإسلامي في إصلاح الملة الحنيفية المحرقة ٤٦
- التعريضات التي تحتاج إلى البيان، ٤٦
- وأمثلتها ٤٧
- هذه الآيات من التذكير بأيام الله ٤٧
- الباب الثاني في بيان وجود الخفاء
- في معاني نظم القرآن بالنسبة إلى أهل هذا العصر، وإزالة ذلك الخفاء بأوضح بيان ٤٨
- أسباب صعوبة فهم المراد من الكلام ٤٨
- الفصل الأول في شرح غريب القرآن ٤٩
- القدماء ربما يفسرون اللفظ ٤٩
- بلازم معناه ٥٠
- الفصل الثاني في معرفة الناسخ والمنسوخ ٥١
- معنى " النسخ " عند المتقدمين ٥١
- عدد الآيات المنسوخة عند المتقدمين ٥٢
- الآيات المنسوخة عند المتأخرين ٥٢
- من سورة البقرة (١) آية الوصية للوارث ٥٢
- (٢) آية القدية لمن يطيق الصيام ٥٣
- (٣) آية حل الرفث ليلة الصيام ٥٣
- (٤) آية النهي عن القتال في الأشهر الحرم ٥٣
- (٥) آية الوصية للمتوفى عنها زوجها بالمتاع إلى الحول ٥٤
- (٦) آية المحاسبة على الباطن والظاهر ٥٤
- من آل عمران (٧) آية الاتقاء من الله تعالى حقاً ٥٥
- التقوى ٥٥

من النساء	من الممتحنة
(٨) آية الإيتاء للموالى ٥٥	(٢٠) آية رد مهور الأزواج المؤمنات
(٩) آية إيتاء اليتامى والمساكين ٥٥	إلى الكفار ٥٩
من الميراث ٥٥	من المزمّل
(١٠) آية حبس مرتكبات الفواحش ٥٥	(٢١) آية الأمر بقيام الليل ٦٠
من المائدة	الفصل الثالث: فى معرفة أسباب
(١١) آية النهى عن إحلال الشهر ٥٦	النزول ٦٠
الحرام ٥٦	• معنى "نزلت فى كذا" عند المتقدمين ٦٠
(١٢) آية الحكم بين أهل الكتاب ٥٦	• روايات المحدثين التى لاعلاقة
أو الإعراض عنهم ٥٦	لها بأسباب النزول ٦١
(١٣) آية إشهاد الكفار فى الغربية ٥٦	• شرط المفسر فى باب أسباب النزول ٦١
من الانفال	• قصص الأنبياء من روايات أهل
(١٤) آية وجوب مقاتلة المسلم ٥٧	الكتاب ٦٢
الواحد مع العشرة من الكفار ٥٧	• معنى آخر لقولهم: "نزلت فى كذا" ٦٢
من البراءة	• صورة قصة ولا قصة لها ٦٢
(١٥) آية الأمر بالنفر خفافا وثقالا ٥٧	• قد يفرضون السؤال والجواب
من النور	فى التفسير ٦٣
(١٦) آية حرمة نكاح الزانى والزانية ٥٨	• قد يريدون التقدم والتأخر الرتبى،
(١٧) آية أمر الاستيذان للعبيد والصبيان ٥٨	لا الزمانى ٦٤
من الأحزاب	• شرط المفسر أمران ٦٤
(١٨) آية عدم حلّ النساء للنبي ٥٨	• فن التوجيه وأمثله ٦٤
صلى الله عليه وسلم سوى أزواجه ٥٨	• يذكر أسباب النزول وتوجيه
من المجادلة	المشكل فى فتح الخبير لفائدتين ٦٦
(١٩) آية الأمر بالصدقة عند مناجاة ٥٩	• إفراط ابن اسحاق والواقدى والكلبى ٦٦
الرسول صلى الله عليه وسلم ٥٩	الفصل الرابع فى بقية مباحث
	هذا الباب ٦٧

٧٩	• الزيادة بالتكرار	٦٧	• ما يوجب الخفاء
٨٠	• زيادة حرف الجر	٦٧	• بيان الحذف
٨١	• واو الاتصال	• حذف خبر "إن" والجزاء والمفعول	
٨١	• فاء الاتصال	٧٠	• والمبتدأ وما شبهها مطرد
	انتشار الضمائر وإرادة المعنيين	• لاجابة إلى تفتيش العامل في	
٨١	• من كلمة واحدة	٧٠	• كلمة "إذ"
٨٢	• مجيء لفظ جعل وشيء لمعان شتى	٧١	• حذف الجار من "أن" مطرد
٨٢	• معنى الأمر والنبا والخطب	٧١	• حذف جواب "لو" الشرطية
٨٢	• معنى الخير والشر	٧١	• بيان الإبدال
٨٢	• انتشار الآيات	٧٢	• إبدال فعل بفعل
	• قد تكون الآية متقدمة في النزول،	٧٢	• إبدال اسم باسم
٨٣	• متأخرة في التلاوة	٧٣	• إبدال حرف بحرف
	• قد يدرج الجواب في تضاعيف	٧٤	• إبدال جملة بجملة
٨٣	• أقوال الكفار	٧٥	• إبدال التوكيد بالتعريف
	الفصل الخامس: في بيان المحكم	• إبدال التذكير والتأنيث والأفراد	
	والمتشابه والكناية والتعريض والمجاز	٧٥	• بأضدادها
٨٣	العقل	٧٦	• إبدال التثنية بالمفرد
٨٣	• المحكم	• إبدال الشرط والجزاء وجواب	
٨٣	• المتشابه	٧٦	• القسم بجملة مستقلة
٨٤	• الكناية	٧٧	• إبدال الخطاب بالغيبة
	• تصوير المعنى المراد بالصورة	٧٧	• إبدال الإخبار بالإنشاء وبالعكس
٨٤	• المحسوسة	• التقديم والتأخير والتعلق بالبعيد	
٨٥	• التعريض	• وما شبههما	
٨٦	• المجاز العقلي	٧٨	• الزيادة في الكلام
	الباب الثالث: في بيان لطائف	٧٩	• الزيادة بالصفة
٨٦	نظم القرآن وشرح أسلوبه البديع	٧٩	• الزيادة بالإبدال
		٧٩	• الزيادة بالعطف التفسيري

٩٦	• منهج القرآن في الفواصل	٨٦	• تقسيم السور
	• السرفى الآية الطويلة مع الآيات	٨٧	• القرآن في عهد عثمان رضى الله عنه
٩٧	القصورة وبالعكس	٨٧	• استهلال السور واختتامها على
٩٧	• الآية ذات القوائم الثلاث	٨٧	أسلوب الفرامين
٩٧	• الآية ذات الفاصلتين	٨٨	• منهج القصائد في مبتدأ بعض السور
٩٧	• أطول آية مع الآيات القصار	٨٩	• خواتم السور على منهج الفرامين
	• لم يراع ذلك الوزن والقافية في	٨٩	• تخلل الكلام البليغ في أثناء السور
٩٨	بعض السور	٩٠	الفصل الثانى: فى تقسيم السور
	• وجه اختيار الأوزان والقوافى	٩٠	إلى الآيات وأسلوبها الفريد
٩٨	الجديدة	٩٠	• الفرق بين الآيات والأبيات
	الفصل الثالث: فى وجه التكرار فى	٩٠	• الأمر المشترك بين الآيات والأبيات
٩٩	العلوم الخمسة، وعدم الترتيب فى بيانها	٩١	• التوافق التقريبى هو الأمر المشترك
	الفصل الرابع: فى وجوه إعجاز	٩١	بين مختلف الكلام المنظوم
١٠١	القرآن الكريم	٩٣	• مراعاة القرآن الكريم للحسن
	الباب الرابع: فى بيان مناهج	٩٤	الإجمالى المشترك
	التفسير، وتوضيح الاختلاف الواقع	٩٥	• الامتداد النفسى الطبيعى هو
١٠٣	فى تفاسير الصحابة والتابعين	٩٥	الوزن فى القرآن
١٠٣	• طوائف المفسرين	٩٥	• خاتمة النفس على المدة هى
١٠٤	• جوامع التفاسير	٩٥	القافية فى القرآن
١٠٥	• ما من الله به على فى علم التفسير	٩٥	• لحوق الألف فى آخر الكلمة
١٠٥	• تفسير كون المصنف أويسيا	٩٥	أيضاً قافية
	• تفسير الكعبة الحسنة والصلاة	٩٦	• توافق الآيات على حرف واحد
١٠٥	العظمى	٩٦	• إعادة الجملة مفيد لذة
	الفصل الأول: فى بيان الآثار	٩٦	• اختلاف فواصل آخر السورة من
	المروية فى تفاسير أصحاب	٩٦	أوائها
١٠٦	الحديث وما يتعلق بها		
١٠٦	• قسمان من أسباب النزول		

- معنى قولهم: "نزلت الآية في كذا" ١٠٦ • التوجيه في تفسير القرآن الكريم ١١٣
- أمور في التفسير لا طائل تحتها ١٠٧ • أنواع التوجيه ١١٤
- القدماء ربما يفسرون على سبيل • غلو المتكلمين ١١٤
- الاحتمال ١٠٧ • الجدل في القرآن ١١٤
- النقل عن بنى إسرائيل دسيسة • لغة القرآن ١١٥
- دخلت في ديننا ١٠٨ • نحو القرآن ١١٥
- تفسير القرآن بالقرآن ١٠٩ • علم المعاني والبيان ١١٥
- وجه اختلاف السلف في شرح • إشارات الصوفية ١١٦
- غريب القرآن ، وكيف يخرج • فن الاعتبار ١١٦
- المصنّف من العهدة في ذلك ١١٠ • الفصل الثالث: في غرائب القرآن
- استنباطات العبد الضعيف في • شرح الغريب ١١٠
- اختلاف المتقدمين والمتأخرين في • أظهر القرآن وبطنه ١١٨
- معنى "النسخ" مما أوجب الاختلاف • مطّلع الظهر والبطن ١١٩
- في عدد الآيات المنسوحة ١١١ • الفصل الرابع: في بيان بعض
- ربما يجعل الإجماع علامة للنسخ ١١١ • العلوم الوهية ١١٩
- أمور أخرى ذكرونها في التفاسير ١١٢ (١) تأويل قصص الأنبياء ١١٩
- الفصل الثاني: في بقية لطائف • تنقيح العلوم الخمسة ١١٩
- هذا الباب ١١٢ (٣) ترجمة القرآن الكريم بالفارسية ١١٩
- الكلام حول استنباط الأحكام ١١٢ (٤) علم خواص القرآن الكريم ١١٩



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحاجة إلى تهذيب التعريب

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

الفوز الكبير في أصول التفسير: صنفه الإمام ولي الله رحمه الله لطلبة العلوم الإسلامية بلغة فارسية محلّية حينذاك، وكان الكتاب موجزاً مختصراً، فكان يدرّس بذوره طول حياته؛ ثم بعده رحمه الله لا يزال يُدرّس في المدارس الإسلامية، لأن الكتاب وإن كان صغير الحجم، ولكنه أجدى من تفاريق العصا، وأنفع من الغيث في أوانه.

ومضى على تصنيفه زمن طويل، والطلاب يقرؤنه برغبة تامة واهتمام بالغ في أرجاء الهند، لأن اللغة الفارسية كانت رائجة في الهند، فلما انقضى عصرها بالهند أحسّ عالم هندي بحاجة البلاد، فترجمه إلى اللغة العربية، وأخفى اسمه، ونسب ذلك الترجمة إلى الشيخ محمد منير الدمشقي، صاحب المطبعة المنيرية الشهيرة بدمشق، ولكن كان في الترجمة هُجْنة وسقط وغموض وتسامح في مواضع عديدة، وكانت الحاجة ماسّة إلى تهذيب الترجمة.

وقبل ربع قرن خدمت الكتاب بشرحى: العون الكبير، فأحسست حينذاك بالخلل، وشعرت بحاجة إلى مقابلة الترجمة بالأصل الفارسي، فقمْتُ بهذا الواجب حيثما وجدت الغموض في التعبير أو الخلل في العبارة، أو التسامح في أداء الغرض، ونبهت عليه في الشرح، ووضعت الترجمة

الصحيحة في الشرح ولم أغير أصل الكتاب.

ولا يزال العون الكبير يُطبع من سبائك حديدية، حتى ذهب روائها وبهائها، فأردت طبع الكتاب بالكمبيوتر، فنظرت في الكتاب مرة أخرى فلم يعجبني الأسلوب، ووقفت في أثناء ذلك على أخطاء كثيرة جديدة، فمست الحاجة إلى المراجعة مرة أخرى.

وكذلك القائمون بتدريس الكتاب في دارالعلوم ديوبند، وكذا في الدُّور الأخرى في البلاد، أصروا على مرات وكرات أن أقوم بتهديب التعريب وتوضيحه، فقممت بواجبي — بتوفيق الملوك الوهاب — نحو الكتاب، وأفرغت الجهد في تحرير الترجمة، وجعلت الترجمة القديمة أصلاً، وغيّرت العبارة في مواضع الضرورة وعُلّقت في مواضع الحاجة بالاختصار، فمن يريد التفصيل فليرجع إلى شرحي العون الكبير وكذا رُقمت الكتاب وعَنَوْنُهُ من جديد والحمد لله!

وأخيراً اعتذر إلى الأساتذة البارعين الشارحين للكتاب باللغة الأردوية، وأتمس منهم أن يغيروا شروحهم طبقاً لهذه الترجمة المهدّية، وكذا إلى قراء العربية من خلط الأردو بالعربي في بعض التعليقات، لأن ذلك لتزويد الناشئين، تقبّل الله مساعينا لصالح دينه القويم، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

سعيد أحمد البالن بوري

١٤١٨/٣/١٧ هـ

ترجمة الإمام المصنف فى سطور

هو أبو عبد العزيز قطب الدين ولى الله أحمد بن عبد الرحيم الفاروقى
الدهلوى، الهندى، وُلد فى عهد عالمگیر سنة ۱۱۱۴هـ ، وتوفى إلى رحمة
الله فى المحرم سنة ۱۱۷۶هـ بمدينة دهلى.

كان رحمه الله من عباقرة الهند، وممن يُشار إليهم بالبنان:

العالم الفاضل التحرير أفضل من بث العلوم فاروى كل ظمآن
أخيا الله به وبأولاده وبتلاميذه، ثم بتلاميذهم ، الحديث والسنة
بالهند، وعلى كتبه وأسانيده المدار فى الديار الهندية؛ فمثله كمثل شجرة
طوبى، أصلها فى بيته وفرعها فى كل بيت من بيوت المسلمين.

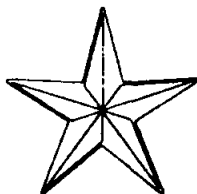
وقد صنف الإمام ولى الله فى العلوم كلها، لاسيما فى الحديث والتفسير
وأصولهما، وتصانيفه تشهد بعلو كعبه وتبحره وغزارة علمه وسعة نظره فى
العلوم الشرعية عن آخرها، ولنذكر هنا بعضها.

(۱) ترجم الفرقان الحميد إلى اللغة الفارسية على شاکلة النظم العربى
فى قدر الكلام، وخصوص اللفظ وعمومه، أسماها بفتح الرحمن (۲) الفوز
الكبير فى أصول التفسير بالفارسية وهذا الكتاب تعريبه (۳) المسوى شرح
الموطا (بالعربية) (۴) المصفى شرح الموطا (بالفارسية) (۵) الإرشاد إلى
مهمات علم الإسناد (۶) حجة الله البالغة فى أصول الدين وعلم أسرار
الشریعة ، وهو كتاب فريد فى بابه، لم يسبقه مثله، ولم ینسج على منواله بعده

(٧) عَقْدُ الْجَيْدِ فِي أَحْكَامِ الاجْتِهَادِ وَالتَّقْلِيدِ (٨) الْإِنْصَافُ فِي بَيَانِ سَبَبِ الْإِخْتِلَافِ (٩) الْمَقْدَمَةُ السُّنِّيَّةُ فِي انْتِصَارِ الْفِرْقَةِ السُّنِّيَّةِ (١٠) وَإِزَالَةُ الْخَفَاءِ عَنْ خِلَافَةِ الْخُلَفَاءِ ، وَهُوَ كِتَابٌ مَاتَعَ عَدِيمُ النَّظِيرِ فِي بَابِهِ (١١) قِرَةُ الْعَيْنِينَ فِي تَفْضِيلِ الشَّيْخِينَ (١٢) التَّفْهِيمَاتُ الْإِلَهِيَّةُ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُفِيدَةِ الَّتِي بَلَغَ عَدْدُهَا إِلَى خَمْسِينَ كِتَابًا .

وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يَخْرُجُ فِي الْعَمَلِ عَنْهُ قَيْدُ شَبَرٍ ، وَأَمَّا فِي الدَّرْسِ وَالتَّصْنِيفِ فَكَانَ طَلَقًا حُرًّا بِبَحْثٍ ، كَمَا كَتَبَ هُوَ بِنَفْسِهِ فِي آخِرِ نَسْخَةِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ، الْمَحْفُوظَةُ بِمَكْتَبَةِ خَدَابِخْشِ بَعْظِيمِ آبَادٍ (بَنَنَهُ) وَنَصَّهُ : " كَتَبَهُ بِيَدِهِ الْفَقِيرُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ الْكَرِيمِ الْوُدُودُ وَلِيُّ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ وَجِيهِ الدِّينِ بْنِ مَعْظَمِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ ، وَأَلْحَقَهُ وَإِيَاهُمْ بِأَسْلَافِهِمُ الصَّالِحِينَ ، الْعَمْرِيُّ نَسَبًا ، الدَّهْلَوِيُّ وَطَنًا ، الْأَشْعَرِيُّ عَقِيدَةً ، الصُّوفِيُّ طَرِيقَةً ، الْحَنْفِيُّ عَمَلًا ، وَالْحَنْفِيُّ الشَّافِعِيُّ تَدْرِيسًا ، خَادِمُ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفَقْهِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالْكَلَامِ ، وَلَهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ تَصَانِيفٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا ، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ لثَلَاثَ وَعَشْرِينَ مِنْ شَوَالِ سَنَةِ ١١٥٩ هـ " .

وَكَذَا لِكُونِهِ حَنْفِيًّا قِرَائِنُ عَدِيدَةٍ مُصَرَّحَةٍ وَمُسْتَنْبِطَةٍ مِنْ كِتَابِهِ ، لَيْسَ هَذَا مَحَلَّ بَيَانِهَا .



علم التفسير

التفسير لغة: الإيضاح والتبيين؛ واصطلاحاً: علم يُبحث فيه عن القرآن المجيد، من حيث دلالاته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية.

فخرج علم القراءات، فإنه علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم، من حيث ضبط ألفاظه، وكيفية أدائها؛ وقلنا: "بقدر الطاقة البشرية" لبيان أنه لا يقدح في العلم بالتفسير عدم العلم بمعاني المتشابهات، ولا عدم العلم بمراد الله تعالى في الواقع ونفس الأمر.

وموضوعه: كلام الله تعالى من حيث دلالاته على مراد الله تعالى وغرضه: الاهتداء بهداية الله تعالى، والتمسك بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الأبدية.

وفضائله: كثيرة، منها:

(١) تكفل الله تعالى بنفسه ببيان تلامه الشريف، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة ١٩) فالله تعالى هو المفسر الأول لكلامه القديم، وكفى به فضيلة!

(٢) جعل تفسير القرآن الكريم وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل ٤٤) فبينه صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله، فهو المفسر الثاني لكتاب الله المثاني؛ وكفى به قدوة!

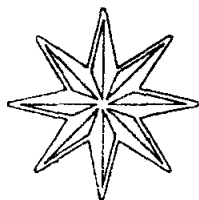
(٣) دعا النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، فقال: ﴿اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ﴾ (رواه البخاري) وفي رواية: ﴿اللَّهُمَّ

عَلَّمَهُ التَّأْوِيلَ ﴿١﴾ (رواه الحاكم) وشهد بِلَبَّائِهِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿يَنْعَمُ تَرْجَمَانِ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ﴾ (رواه الحاكم) فهل فوق ذلك من فخر!

(٤) وَجُعِلَ خَيْرُ النَّاسِ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ النَّاسَ ، وَهَذَا عَامٌ لِلْفَظِ الْقُرْآنَ وَمَعَانِيهِ، بَلْ هُوَ أَوْلَى ، وَنَاهِيكَ بِهِ مِنْ غُلْيَاءٍ!

التفسير والتأويل: هما بمعنى واحد عند المتقدمين ، وأما عند المتأخرين، فقال الإمام أبو منصور الماتريدي: التفسير: القطع بأن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه غنى باللفظ هذا؛ فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فتفسير بالرأى، وهو المنهى عنه والتأويل: ترجيح أحد الاحتمالات بدون القطع والشهادة على الله (راجع الإتقان النوع ٧٧)

والتفسير بالرأى: هو التفسير بالهوى، والتفسير من عند نفسه، بحيث يوجب تغييراً لمسألة إجماعية قطعية، أو تبديلاً في عقيدة السلف المُجْمَع عليها؛ وأما التفسير بالدليل والقرينة فهو تفسير صحيح معتبر في الشرع؛ ومن يطالع كتب التفسير يجدها مشحونة بمثل هذه التفاسير، فلا ضير فيها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

آلاءُ^(١) الله تعالى على هذا العبد الضعيف لا تُعدُّ ولا تُحصى؛ وأجلُّها: التوفيق لفهم القرآن العظيم. وَمِنْ^(٢) صاحب النبوة والرسالة — عليه الصلاة والسلام — على أحقر الأئمة كثيرة؛ وأعظمُها: تبليغه صلى الله عليه وسلم الفرقان الكريم؛ لَقَدْ^(٣) النبى صلى الله عليه وسلم القرآن الجليل الأول^(٤) وهم أبلغوه للجيل الثانى^(٥)، وهَلُمَّ^(٦) جرأً^(٧)، حتى بلغ هذا الضعيف أيضاً حظاً من روايته ودرايته.

اللهم صلِّ على هذا النبى الكريم: سيِّدنا ومولانا وشفيعنا ، أفضل صلواتك، وأيمن بركاتك وعلى آله وأصحابه، وعلماء أمته أجمعين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد: فيقول الفقير ولى الله بن عبد الرحيم — عاملهما الله تعالى بلطفه العظيم —: لما فتح الله تعالى على بابا من فهم كتابه المجيد، خطر ببالى أن أجمع وأقيد بعض النكات^(٨) النافعة التى تنفع الأصحاب فى رسالة مختصرة؛ والمرجوُّ من لطف الله — الذى لا انتهاء له — أن يفتح لطلبة العلم — بمجرد فهم هذه القواعد — شارعاً واسعاً فى فهم معانى كتاب الله، بحيث لو صرفوا عُمْرَهم فى مطالعة التفسير، والقراءة على

(١) جمع الإلَى، والإلَى، والآلَى: النعمة (٢) جمع الجنة: الإحسان (٣) لفظة الكلام: فهمه إياه مشافهة (٤) الجيل الأول: هم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (٥) الجيل الثانى: هم جماعة التابعين (٦) هلم جرأً: تعبير يقال لاستدامة الأمر واتصاله (٧) جمع النكتة، وهى المسألة العلمية اللطيفة، التى أخرجت بدقة نظر، وإمعان فكر، والمراد بها هنا: الفوائد النافعة.

المفسرين — على أنهم أقل قليل في هذا الزمان — لم تتحصل لهم هذه
الفوائد بهذا الضبط والربط. وسُمِّيَتْها بـ ﴿الفوز الكبير في أصول التفسير﴾
وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلتُ، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

ومقاصد هذه الرسالة منحصرة في خمسة أبواب:

الباب الأول: في بيان العلوم الخمسة، التي يدلُّ عليها القرآن العظيم نصًّا
وكان نزول القرآن بالإصالة كان لهذا الغرض.

الباب الثاني: في بيان وجوه الخفاء في معاني نظم القرآن، بالنسبة إلى أهل
هذا العصر، وإزالة ذلك الخفاء بأوضح بيان.

الباب الثالث: في بيان لطائف نظم القرآن، وشرح أسلوبه البديع، بقدر
الطاقة والإمكان.

الباب الرابع: في بيان مناهج التفسير، وتوضيح الاختلاف الواقع في تفاسير
الصحابة والتابعين.

الباب الخامس: في ذكر جملةٍ صالحةٍ^(١) من شرح غريب القرآن، وأسباب
النزول التي يجب حفظها على المفسر، ويمتنع ويحرم الخوض في كتاب الله
بدونها^(٢).

الباب الأول

في

بيان العلوم الخمسة التي يدل عليها القرآن العظيم نصًّا

ليُعلم أن معاني القرآن المنصوصة لا تخرج عن خمسة علوم:

١- علم الأحكام: وهي الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام؛

(١) أى مقداراً كافياً (٢) أسقط الناشرون للفوز الكبير الباب الخامس منه لعدم

شموله في الدرس.

سواء كانت من قسم العبادات، أو من قسم المعاملات،^(۱) أو من تدبیر المنزل^(۲) أو من السياسة المدنیة؛^(۳) وتفصیل هذا العلم منوط^(۴) بذمة الفقیه.

۲۔ علم الجدل: وهو المحاجة مع الفرق الأربع الضالّة: من اليهود والنصارى والمشرکین والمنافقین؛ وتبیان هذا العلم منوط بذمة المتکلم.

۳۔ علم التذکیر^(۵) بآلاء اللّٰه: وهو بیان خلق السماوات والأرض وإلهام العباد ما یحتاجون إلیه، وبیان صفات اللّٰه الكاملة.

۴۔ علم التذکیر بأیام اللّٰه^(۶): وهو بیان الوقائع الّتی أخذتها اللّٰه سبحانه وتعالی من قبیل تنعیم المطیعین، وتعذیب المجرمین.

۵۔ علم التذکیر بالموت وما بعده: من الحشر والنشر والحساب والمیزان والجنة والنار.

وتفصیل هذه العلوم الثلاثة، وذكر الأحادیث والآثار المتعلقة بها یرجع إلی الواعظ والمدّکر.

أسلوب القرآن الکریم فی عرض العلوم الخمسة

وإنما وقع بیان هذه العلوم علی أسلوب العرب الأولین، لاعلی منهاج

(۱) المعاملات: مسائل باحثة عن کیفیة إقامة المعادلات، والمعاونات، والاكتسابات لیما بین الناس (فمن معاملات: وہ علم ہے جس میں ترقی یافتہ تمدن یعنی شہری زندگی میں تبادلہ کثیہ تعاون باہمی اور ذرائع معاش کو وجود میں لانے کی صورتوں سے بحث کی جاتی ہے) (۲) علم تدبیر المنزل: حکمة باحثة عن کیفیة حفظ الریبط الواقع بین اهل المنزل (فمن تدبیر منزل: وہ علم ہے جو ترقی یافتہ تمدن میں خاندانی تعلقات کی نمبداشت سے بحث کرتا ہے) (۳) علم سیاست المدینة: حکمة باحثة عن کیفیة حفظ الریبط الواقع بین اهل المدینة (سیاست المدینة یعنی انتظام مملکت، یہ وہ فن ہے جس میں کسی ایک شہر یا ایک ملک کے لوگوں کے درمیان ربط و تعلق کو محفوظ رکھنے کے طریقوں سے بحث کی جاتی ہے) (۴) المنوط: المعلق، یقال: هذا منوط به ای معلق به (۵) ذکرہ الشیء وبالشیء: جعله بذکرہ، و ذکرہ القوم: وعظّمهم (۶) آیام اللّٰه: بعمّہ وبقمّہ کقصص الانبیاء وأقوامہم، وأیام العرب: حروبہم وملاحمہم، کیوم ذی قار، ویوم الفجار.

العلماء المتأخرين، فلم يلتزم سبحانه وتعالى في آيات الأحكام اختصاراً يختاره أهل المتون، ولا تنقيح القواعد من قيود غير ضرورية، كما هو صناعة الأصوليين؛ واختار سبحانه وتعالى في آيات المخاصمة إلزام الخصم بالمشهورات المسلمة^(١) والخطابات النافعة^(٢) لا تنقيح البراهين^(٣) على طريقة المنطقيين؛ ولم يُراعِ سبحانه وتعالى المناسبة في الانتقال من موضوع إلى موضوع، كما يراعيها الأدباء المتأخرون؛ بل نشر كل ما أهم^(٤) إلقاؤه على العباد، سواء كان مقدماً أو مؤخراً

لا يحتاج كل آية إلى سبب النزول

وقد ربط عامة المفسرين كل آية من آيات الجدل والأحكام بقصة، ويظنون أن تلك القصة هي سبب نزولها.

والحق: أن القصد الأصلي من نزول القرآن هو تهذيب النفوس البشرية، ودمغ العقائد الباطلة، ونفى الأعمال الفاسدة؛ فوجود العقائد الباطلة في خواطر المكلفين سبب لنزول آيات الجدل؛ ووجود الأعمال الفاسدة، وشيوع المظالم فيما بينهم سبب لنزول آيات الأحكام؛ وعدم تيقظهم وتنبههم بغير ذكر آلاء الله، وأيام الله، ووقائع الموت وما بعده سبب لنزول آيات التذكير.

وأما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التي تَجَسَّم المفسرون ببيانها فليس لها مدخل في ذلك، يُعْتَدُّ به، إلا في بعض الآيات الكريمة، حيث وقعت الإشارة فيها إلى حادثة من الحوادث التي وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أو قبله؛ ولا يزول ما يُعْرِضُ للسامع من الترقُّب والانتظار، عند سماع

(١) أي المسلمة عند عوامهم وخواصهم (٢) الخطابة: قياس مؤلف من المظنونيات أو المقبولات والخطابة بفتح الخاء مصدر. (٣) البرهان: قياس مؤلف من اليقينيات سواء كانت بديهيات أو نظريات، منتهية إلى البديهيات (٤) أهم الأمر فلانا: أثار اهتمامه.

ذلك التعريض إلا ببسط القصة؛ فلزم أن نشرح هذه العلوم بوجهٍ لاحتاج إلى إيراد القصص الجزئية^(١)

الفصل الأول

في
علم الجدل^(٢)

قد وقعت المخاصمة في القرآن العظيم مع الفرق الأربعة الضالة: المشركين واليهود والنصارى والمنافقين؛ وهذه المخاصمة على طريقين: الأول: أن يذكر سبحانه وتعالى العقيدة الباطلة، مع التنصيص على شاعتها، ويذكر استنكارها فحسب. والثاني: أن يُبين شبهاتهم الواهية ويذكر حلها بالأدلة البرهانية أو الخطابية.

ذكر المشركين

وقد كان المشركون يُسمّون أنفسهم حُفَاءً^(٣) ويدعون التدئين بملة سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ وإنما يقال "الحنيف" لمن تدئين بالملة الإبراهيمية، والتزم شعارها.

(١) ذكر الإمام المصنف في الفصل الأول علم الجدل مع الفرق الأربعة الضالة وفي الفصل الثاني بقية العلوم الخمسة، فبدأ بعلوم التذكير الثلاثة، ثم ثنى بمباحث الأحكام؛ ففي الكلام لف ونشر مشوش، فتنه له. (٢) يقال لعلم الجدل: علم المناظرة والمخاصمة أيضاً؛ والمراد به هنا: أن النفوس السُفلية إذا تولدت بينها شبهات تُدافع بها الحق، فكيف تُحل تلك المُقَدِّ؟ (٣) الحنفاء جمع حنيف على زينة لعل: المائل عن الأديان كلها إلى الدين القويم؛ من الحنف وهو الميل؛ وفي الاصطلاح: كل من كان على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهو حنيف.

شعائر الملة الإبراهيمية

وشعائرها: حج البيت الحرام، واستقباله في الصلوات، والغسل من الجنابة، والاختتان، وسائر خصال الفطرة^(١) وتحريم الأشهر الحرم، وتعظيم المسجد الحرام، وتحريم المحرمات النسبية والرضاعية، والدَّبْح في الحلق، والتَّخَرُّق في اللَّبَّة، والتقرب بالذَّبْح والنحر إلى الله تعالى، لاسيما في أيام الحج.

شرائعها

وقد كان الوضوء والصلاة، والصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والصدقة على اليتامى والمساكين، والإعانة على نوائب الحق، وصلة الأرحام مشروعة في أصل الملة، وكان التَّمُدُّح بهذه الأعمال شائعا فيما بينهم، إلا أن جمهور المشركين قد تركوها، حتى صارت هذه الأعمال في حياتهم العملية كأن لم تكن شيئا.

وقد كان تحريم القتل والسرقة والزنا والربا والغصب أيضًا ثابتا في أصل الملة؛ وكان استنكار هذه الأفعال باقيا عندهم في الجملة؛ ولكنَّ جمهور المشركين كانوا يتركبونها، ويتبعون النفس الأمارة فيها.

عقائدها

وقد كانت عقيدة إثبات الصانع سبحانه وتعالى، وأنه هو خالق الأرض والسموات العلوى، وأنه مدبِّر الحوادث العظام، وأنه قادر على إرسال الرسل وجزاء العباد بما يعملون، وأنه مقدِّر للحوادث العظيمة قبل وقوعها، وأن الملائكة عباده المقربون، وأنهم يستحقون التعظيم، كل ذلك كان ثابتا

(١) خصال الفطرة: هي قَصُّ الشارب، وإغفاء اللحية، والسَّوَأُك، واستنشاق الماء، وقصُّ الأظفار، وغسل الأرجام، وتنفُّف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء يعني الاستنجاء قال الراوى: ونسبتُ العاشرة إلا أن تكون المضمضة (رواه مسلم مشكوة رقم الحديث ٣٧٩) وفي رواية: الجَنَان بدل إغفاء اللحية (رواه أبو داود عن عمار بن ياسر رضى الله عنه)

عندهم، ويدل على ذلك أشعارهم ؛ ولكن جمهور المشركين قد وقعوا فى شبهات كثيرة تُجاء هذه المعتقدات لاستبعادها، وعدم الفتنهم بإدراكها.

ضلال المشركين

وكان من ضلالهم: الشرك، والتشبيه، والتحريف، وجحود الآخرة، واستبعاد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وشيوع الأعمال القبيحة والمظالم فيما بينهم، وابتداع التقاليد الباطلة، واندراس العبادات.

بيان الشرك

والشرك: أن يُنبت لغير الله تعالى شيئا من الصفات المختصة به تعالى، كالنصرف فى العالم بالإرادة - الذى يعبر عنه بـ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ - أو العلم الذاتى - غير المكتسب بالحواس ودليل العقل والمنام والإلهام ونحو ذلك - أو الإيجاد لشفاء المريض، أو اللعن على شخص، والسخط عليه حتى يُقدر عليه الزرق، أو يمرض، أو يشقى بسبب ذلك السخط، أو الرحمة لشخص حتى يُيسط له الزرق، ويصخ بدنه، ويسعد بسبب هذه الرحمة^(١).

ولم يكن هؤلاء المشركون يشركون أحداً فى خلق الجواهر^(٢)، وتدبير الأمور العظام، ولا يُثبتون لأحد قدرة الممانعة^(٣) إذا أيرم^(٤) الله تعالى أمراً؛ وإنما كان إشراكهم فى أمور خاصة ببعض العباد، ويظنون أن سلطانا عظيما من السلاطين كما يرسل عبيده المخصوصين إلى نواحي مملكته، ويجعلهم مختارين متصرفين فى أمور جزئية، إلى أن يصدر عنه حكم صريح فى أمر خاص، ولا يقوم بشئون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه، بل يكل الرعية إلى الولاة والحكام، ويقبل شفاعتهم فى حق الذين يخدمونهم، ويتوسلون بهم؛

(١) والحاصل: أن الصفات المذكورة من النصرف فى الكون، والعلم الذاتى، وإيجاد الشفاء، واللعن والسخط والرحمة كلها مختصة بالله تعالى، فمن أثبت شيئا منها لغيره تعالى فقد أشرك (٢) جمع الجواهر، وهو ما قام بنفسه، ويقابله العرض، والمراد: المكونات المادية (٣) الممانعة: المنازعة (٤) أيرم الأمر: أحكمه.

كذلك قد خلع الملك على الإطلاق^(١) على بعض عباده خِلعةَ الألوهية، وجعل سخطهم ورضاهم مؤثراً في عباده الآخرين. فيرون التزلف^(٢) إلى أولئك العباد المقربين واجباً ليتسرلهم حسن القبول في حضرة الملك المطلق، وتقبل شفاعتهم للمتقربين بهم في مجارى الأمور^(٣)

وكانوا يجوزون نظراً إلى هذه الأمور: أن يُسجدلهم، ويُذبح لهم، ويُخلف بهم، ويستعان بقدرتهم المطلقة في الأمور المهمة. ونحتوا صوراً كصورهم من الحجر والصُّفر وجعلوها قبلة للتوجه إلى تلك الأرواح؛ حتى اعتقد الجهال شيئاً فشيئاً تلك الصُّورَ معبودةً بذواتها؛ فتطرق^(٤) الفساد العظيم إلى المعتقدات.

بيان لتشبيهه

والتشبيه: عبارة عن إثبات الصفات البشرية لله تبارك وتعالى، فكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، وإنه تعالى يقبل شفاعة عباده، وإن لم يرضَ بها، كما يفعل الملوك أحياناً مثل ذلك مع الأمراء الكبار؛ ولما لم يستطيعوا إدراك علمه تعالى وسمعه وبصره، كما يليق بشأن الألوهية، قاسوها على علمهم وسمعهم وبصرهم، فوقعوا في عقيدة التجسيم^(٥)، ونسبوا التحيز إلى الله تعالى شأنه.

بيان التحريف

وأما التحريف فإن قصته: أن أولاد سيدنا إسماعيل عليه السلام كانوا على شريعة جدّهم الكريم: سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حتى جاء عصر عمرو بن لُحَيٍّ^(٦) — لعنه الله — فوضع لهم الأصنام، وشرع لهم

(١) قوله: على الإطلاق أى الكامل فى التصرف، يفعل ما يشاء؛ من أطلق له التصرف: أباحه (٢) التزلف: التقرب (٣) مجارى الأمور: هى مادون الأمور العظام (٤) تطرق إليه: ابتغى إليه طريقاً (٥) التجسيم: عقيدة أن الله تعالى له جسم كأجسامنا. والتحيز: عقيدة أن الله تعالى متمكن فى مكان. (٦) عمرو بن لُحَيٍّ: من قحطان، كنيته أبو ثمامة، وفى نسبه اختلاف شديد، ويُظن أنه كان فى أوائل القرن الثالث من الميلاد

عبادتها، واخترع لهم تحرير البحائر والسوانب والحامى، والاستقسام بالأزلام، وأمثال هذه الطُّقوس^(١). وقد كان هذا الحادث^(٢) قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم بقُرابة ثلاث مائة سنة، وكانوا يتمسكون فى هذا الباب^(٣) بآثار آبائهم، ويرونها من الحجج القاطعة.

جحود الآخرة

وقد بين الأنبياء السالفون الحشر والنشر؛ ولكن لم يكن ذلك البيان بشرح وبسط مثل ما تَصَمَّنَه القرآن العظيم، ولذلك كان جمهور المشركين قليلى الاطلاع عليه، وكانوا يستبعدون وقوعه.

استبعاد رسالة النبى صلى الله عليه وسلم

وهؤلاء الجماعة وإن كانوا معترفين بنبوة سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام؛ بل بنبوة سيدنا موسى عليه السلام أيضًا^(٤)؛ ولكن كانت الصفات البشرية — التى هى حجاب لجمال الأنبياء الكامل^(٥) — تشوشهم تشويشًا^(٦)؛ وكذلك لما لم يعرفوا حقيقة تدبير الله الذى هو مقتضى بعثة الأنبياء، استبعدوا الرسالة، لا اعتقادهم أن الرسول ينبغى أن يكون مثل المرسل، فكانوا يوردون لأجل ذلك شبهات واهية، غير مسموعة، فيقولون مثلاً: كيف يكون النبى محتاجًا إلى الطعام والشراب؟ ولما ذا لم يرسل الله ملكًا رسولاً؟ ولماذا لا يُوحى إلى كل أحد على حدة؟ وعلى هذا الأسلوب.

نموذج المشركين

وإن كنت غير مُهْتَدٍ فى تصوير^(٧) حال المشركين وعقائدهم وأعمالهم،

(١) الطُّقوس جمع الطُّقْس : وهى المراسيم الدينية. (٢) يعنى وقعة عمرو بن لحي. (٣) يعنى فى جواز عبادة الأصنام (٤) أى مع كونه عليه السلام من غير آبائهم (٥) أى تحول تلك الصفات بين الأنبياء وبين جمالهم الحقيقى، وتَحْجُبُهُمْ، فلا يدركون ذاك الجمال الكامل لجهلهم (٦) شوش الأمر: ضربه مضطرباً، (٧) صور الأمر: وصفه وصفاً يكشف حاله كشفاً بيناً.

فانظر إلى حال المحترفين^(١) من أهل عصرنا، لاسيما الذين يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام^(٢) ما هم تصوراتهم عن "الولاية"؟ فمع أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين، يرون وجود الأولياء في هذا العصر من قبيل المستحيلات، ويذهبون إلى القبور والعتبات، ويرتكبون أنواعا من الشرك^(٣)، وكيف تطرَّق إليهم التشبيه والتحريف؟ ونرى طبق الحديث الصحيح: "لَتَبْعُنْ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"^(٤) أنه ما من بلية من البلايا إلا وطائفة من أهل عصرنا يرتكبونها، ويعتقدون مثلها، عافانا الله سبحانه وتعالى من ذلك.

وبالجملة: فإن الله تعالى بعث سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم — بفضله ورحمته — في العرب، وأمره بإقامة الملة الحنيفة، وخاصتهم^(٥) في القرآن العظيم، واستدل في المخاصمة بمسلماتهم التي هي من بقايا الملة الحنيفة، ليتحقق الإلزام.

فردُّ الإشراك

أولا: بسطالبتهم بالدليل على ما يزعمون، ونقض تمسكهم بتقليد آبائهم. وثانيا: بإثبات عدم التساوي بين هؤلاء العباد وبين الرب تبارك وتعالى؛ وبيان اختصاصه تعالى باستحقاق أقصى غاية التعظيم، بخلاف هؤلاء العباد. وثالثا: ببيان إجماع الأنبياء على هذه المسئلة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، فَاعْبُدُونِ﴾^(٦) ورابعا: ببيان شناعة عبادة الأصنام، وأن الأحجار ساقطة عن مرتبة الكمال الإنساني، فكيف ينالون مرتبة الألوهية؟ — وهذا الرد مسوق لقوم

(١) احترف: اتخذ حرفة فهو مُحترِف (يشير كرنے والا) (٢) أى لما أنهم يسكنون بنواحي دار الإسلام وأرجانها يكونون جاهلين من الدين (٣) أى هم لا يستفيدون من الأولياء الأحياء، بل يذهبون إلى الأموات، ويرتكبون هناك البدع والخرافات. (٤) رواه الشيخان واللفظ لأحمد والبيهقي. (٥) أى جادلهم ونازعهم (٦) سورة الأنبياء ٢٥.

يعتقدون الأصنام معبودة لذواتها^(١)

ورد التشبيه

أولاً: بمطالبتهم بالدليل على دعواهم، ونقض تمسكهم بتقليد آبائهم.

وثانياً: ببيان ضرورة التجانس بين الوالد والولد؛ وهو مفقود بالبداهة.

وثالثاً: ببيان شناعة نسبة ما هو مكروه ومذموم لديهم إلى الله تعالى، كما

قال تعالى: ﴿الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ؟﴾^(٢) — وهذا الرد مسوق لقوم

اعتادوا المقدمات المشهورة، والمتوهّمات الشعرية^(٣)؛ وكان أكثرهم من

هذا القبيل.

ورد التحريف

أولاً: ببيان أنه لم يؤثر عن أئمة الملة الحنيفية.

وثانياً: ببيان أن ذلك كلّ اختراعات وابتداعات ممن ليسوا بمعصومين.

ورد استبعاد الحشر والنشر

أولاً: بالقياس على إحياء الأرض بعد موتها، وما أشبه ذلك^(٤)، وتنقيح المناط

الذي هو شمول القدرة، وإمكان الإعادة^(٥).

وثانياً: ببيان موافقة أهل الكتب السماوية كلّهم في الإخبار به^(٦).

(١) وأما الذين يظنون الأصنام وسيلة التقرب، وقبلة التوجه فلا يكتفيهم هذا الجواب

(٢) سورة الصافات ١٤٩ (٣) المتوهّمات: قضايا كاذبة يحكم بها الوهم في أمور غير

محسوسة — والشعر: قول مؤلف من المخیلات — والمخیلات: قصاياتخیل

بها؛ لتأثير النفس بها قبضاً وبسطاً، فترغب فيها، سواء كانت صادقة أو كاذبة، كقول

القاتل: الخمر ياقوتة سيّالة فحينئذ تنبسط النفس وترغب فيها؛ والعسل مرّة مهوغة،

فالنفس تنقبض وتتفر عنه (٤) كقياس الإعادة على الابتداء (٥) أى نقول: إن الإعادة

موقوف على أمرين: الأول: كون الإعادة ممكناً، والثاني: كون قدرة الله تعالى شاملاً

عليه، وثبت كلا الأمرين، فأى استحالة فيه؟ (٦) أى نقول: إن الكتب السماوية كلّها

متفقة في الإخبار بوقوع الحشر والنشر، فكان ذلك إجماعاً قاطعاً عليه

والردُّ على منكرى الرسالة

أولاً: بيان وجودها في الأنبياء السابقين، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَسْتَ مُرْسَلًا، قُلْ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٢) وثانياً: بدفع الاستبعاد ببيان أن الرسالة هنا عبارة عن الوحي، قال تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾^(٣) ثم يفسر الوحي بما لا يكون من المستحيلات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًا، أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾^(٤) وثالثاً: ببيان أن عدم ظهور المعجزات التي يقترحونها^(٥) وعدم موافقة الله تعالى إياهم في تعيين شخص يتوحدون^(٦) رسالته وعدم إرساله تعالى الملائكة رسلاً، وعدم إيحائه تعالى إلى كل شخص، كل ذلك لمصلحة كلية، يقصر علمهم عن أدراكها.

ولما كان أكثر الناس الذين بعث الله إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم مشركين، ذكر هذه المعاني في القرآن الكريم في سور كثيرة بأساليب متعددة وتأكيدات بليغة؛ ولم يتحاش^(٧) عن تكرارها وتردادها؛ نعم هكذا ينبغي أن تكون مخاطبة الحكيم المطلق مع هؤلاء الجهلة؛ والكلام في مقابلة هؤلاء السفهاء جدير بهذا التأكيد البليغ، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

ذكر اليهود

وقد كان اليهود، آمنوا بالتوراة، وكان من صلالهم:

١ - تحريف أحكام التوراة، سواء كان تحريفاً لفظياً أو تحريفاً معنوياً.

(١) سورة يوسف ١٠٩ (٢) سورة الرعد ٤٣ (٣) سورة خَم السجدة ٦ (٤) سورة الشورى ٥١ (٥) اقترح عليه كذا وبكذا: تحكّم وسأله إياه بالعنف، ومن غير روية (تختي) سے۔ سوچے کچھ سوال کرتا، مطالبہ کرتا (٦) تُوْحِي الأمر: قصد إليه، وتعتمد فعله، وتحرّاه يقال: توخى رضاه وتوخى محبته (٧) تحاشى عن كذا: تنزّه.

٢ - وكنمان آيات التوراة.

٣ - وإلحاق ما ليس منها بها، افتراء منهم.

٤ - والتقصير في تنفيذ أحكامها.

٥ - والعصية الشديدة لديانتهم.

٦ - واستنكار رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وسوء الادب والطعن عليه

صلى الله عليه وسلم، بل بالنسبة إلى الرب تبارك وتعالى أيضًا.

٧ - وابتلاؤهم بالخل والحرص ونحو ذلك من الرذائل.

بيان التحريف

وقد تحقق لدى الفقير أن تحريفهم اللفظي^(١) قد كان في ترجمة التوراة

وأمثالها، لافي أصل التوراة؛ وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما.

والتحريف المعنوي: هو تأويل فاسد بحمل الآية على غير معناها، بتعسف

وانحراف عن سواء السبيل.

أمثلة التحريف المعنوي:

١- فمن جملة ذلك: أن الله تعالى قد بين الفرق بين المتدين الفاسق

والكافر الجاحد في كل ملة، وتوعد الكافر بالخلود في النار والعذاب الأليم،

وجوز خروج الفاسق من النار بشفاعاة الأنبياء، وصرح بذلك في كل ديانة

باسم المتدين بتلك الديانة، فثبت ذلك في التوراة لليهود والعبريين^(٢) وفي

الإنجيل للنصرانيين، وفي القرآن العظيم للمسلمين؛ ومناطق الحكم: هو الإيمان

(١) اعلم أن في التحريف ثلاثة مذاهب: ذهب جماعة إلى إنكار التحريف اللفظي رأساً،

فالتحريف عندهم كله معنوي، وإليه جنح الإمام المصنف رحمه الله تعالى؛ وذهب

جماعة إلى أن التحريف اللفظي موجود فيها، ولكنه قليل؛ وقال جماهير العلماء: إن

التحريف قد وقع في الكتب السماوية بكل نحو من اللفظي والمعنوي كثيراً. (٢) يقال

لليهودي: العبري والعبراني، تسمية لهم باسم لغتهم؛ وهم يسمون أنفسهم بالإسرائيليين،

نسبة إلى إسرائيل أى يعقوب عليه السلام.

بالله واليوم الآخر، والإيمان بالنبي الذي بُعث إليهم، والانقياد له، والعمل بشرائع ملته، والاجتناب عن نواهيها؛ لاتخصيص الحكم بفرقة من الفرق لذاتها. ولكن اليهود زعموا أن كل من كان يهوديا أو عبريا فهو من أهل الجنة، وتُخلصه شفاعاة الأنبياء من العذاب، ولا يمكن في النار إلا إيماء معدودات، وإن لم يتحقق ذلك المناخ، ولم يكن إيمانه بالله تعالى على الوجه الصحيح، ولم يدرك حظًا من الإيمان بالآخرة، ورسالة النبي المبعوث إليهم.

وهذا خطأ صرف وجهل محض، وقد كشف القرآن العظيم هذه الشبهة على أتم وجه، لما أنه كان مُهَيِّمًا^(١) على الكتب السابقة، مُبَيِّنًا لمواضع الإشكال فيها، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢)

٢ - ومن جملة ذلك: أنه تعالى قد بيَّن في كل ملة أحكامًا تناسب مصالح ذلك العصر. وروعت في التشريع^(٣) عادات القوم الصالحة، وأُعيد الأمر بالآخذ بها، وإدامة العمل عليها، والاعتقاد بها، وحَصْرِ الْحَقِيقَةِ فيها؛ والمراد أن الحق منحصر فيها في ذلك العصر، وأن الإدامة عليها^(٤) إضافية، لاحقيقية أي مالم يأت نبي آخر، ومالم يكشف الستار عن وجه رسالته.

ولكن اليهود حملوا ذلك على استحالة نسخ اليهودية؛ وكان معنى^(٥) وصية التمسك بها هو الوصاية بالإيمان بالله والتمسك بالأعمال، ولم تكن خصوصية تلك الملة معتبرة لذاتها؛ ولكن اليهود اعتبروا الخصوصية، فظنوا أن يعقوب عليه السلام وصى بنيه بالتمسك باليهودية أبدًا.

(١) هَيِّمٌ عَلَى كَذَا: سَيَّطَرَ عَلَيْهِ، وَرَاقَبَهُ وَحَفَظَهُ (تكملة بيان ٢٠٤) (٢) سورة البقرة ٨١ (٣) التشريع: سُنُّ الْقَوَانِين (٤) ضُمَائِرُ التَّائِيثِ كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى الْمِلَّةِ (٥) هذا جواب سؤال مطوى، وهو أن اليهود يدعون أن يعقوب عليه السلام يوم مات وصى بنيه بالتمسك باليهودية، فيستدلون بتلك الوصية على استحالة نسخ اليهودية، والجواب: أن ذلك القراء منهم على يعقوب عليه السلام، ولم يكن معنى وصيته هذا، بل كان معناه الخ.

٣ - ومن جملة ذلك: أن الله تعالى شرف الأنبياء، والتابعين لهم بإحسان، في كل ملة بوصف المقرَّب والمحبوب، ووصف الذين ينكرون الملة بالمغضوب؛ وأطلق في هذا الباب لفظاً شائعاً في كل قوم، فلا عجب لو استعمل كلمة "الأبناء" مقام المحبوبين؛ ولكن ظن اليهود أن هذا التشريف دائر مع اسم اليهودي والعبري والإسرائيلي، ولم يعرفوا أنه دائر مع صفة الإنقياد والخضوع، والسير على الحق الذي أنزله الله على الأنبياء لا غير.

وقد ارتكرو^(١) في خواطرهم كثير من التأويلات الفاسدة من هذا القبيل، وتلقَّوها وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم؛ فذخَص^(٢) القرآن الكريم هذه الشبهات على أتم وجه.

بيان كتمان الآيات

أما كتمان الآيات: فهو أنهم كانوا يُخفون بعض الأحكام والآيات للمحافظة على جاه شريف، أو لطلب منصب عزيز، لنلا يتلاشى اعتقاد العامة فيهم، ولا يلاموا على ترك العمل بتلك الآيات.

أمثله

١ - فمن جملة ذلك: أن حكمَ رجم الزاني مصرَّح في التوراة، ولكنهم أهملوه لإجماع أحبارهم^(٣) على إهماله، وإقامة الجُلْد وتسخيم^(٤) الوجه مقامه، وكانوا يخفون تلك الآيات خشيةً الفضيحة.

٢ - ومن جملة ذلك: أن الآيات^(٥) التي فيها بشارة ببعثة نبي في أولاد هاجر^(٦) وإسماعيل عليهما السلام، والتي فيها إشارة إلى وجود ملة، يتم ظهورها وشهرتها في أرض الحجاز وتمتلي بها جبال عرفة من التلبية، ويوم (١) ارتكروا الشيء؛ ثبت واستقر في محله (٢) ذخَصَ الحجة: أبطلها ودفعها (٣) الأحبار جمعُ جبر - بفتح أوله، وبكسره -: العالم الكبير عند النصاري، ورئيس الكهنة عند اليهود (٤) سَخِمَ الله وجهه: سَوَّده، والسَخَم: السواد (٥) يعنى آيات التوراة (٦) هاجر على زنة فاعل: أم إسماعيل عليهما السلام، ويقولون: آجرو، فيبدلون الهمزة من الهاء.

الناس ذلك الموضع من الأقطار والأمصار؛ وهي ثابتة في التوراة حتى اليوم؛ فكان اليهود يتأولونها بأن ذلك إخبار بوجود تلك الملة، وليس فيها أمر باتباعها؛ وكانوا يرددون هذه الكلمة: "مَلَحْمَةٌ كُتِبَتْ عَلَيْنَا"^(١)

ولمّا أن هذا التأويل الركيك لا يسمعه أحد، ولا يصح عند أحد، كانوا يتواصون فيما بينهم بإخفائها، ولا يسمعون بإظهارها على كل عام وخاص، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، لِيُتَّخِذُوا مِنْكُمْ بَعْدَ رَبِّكُمْ هُزُوًا﴾^(٢).

ما أجعلهم! هل يمكن أن تُحْمَلَ مِنْهُ الله تعالى على هاجرو إسماعيل — عليهما السلام — بهذه المبالغة، وذكر هذه الأمة بهذه الفضيلة، على الإخبار بوجود تلك الملة، ولا يكون فيه حث وتحريض على اتباع هذا الدين؟! سُبْحَانَكَ هَذَا إِلَافُكَ عَظِيمٌ!

بيان الافتراء:

أما الافتراء^(٣) فأسبابه:

- ١- دخول التعقُّ والتشدد على أخبارهم ورهبانهم.
- ٢- والاستحسان أى استنباط بعض الأحكام بناءً على إدراك المصالح فيها، بدون نص من الشارع.
- ٣- وترويج الاستنباطات الروائية.

فاتباعهم الحقوها بالأصل^(٤) زعمًا منهم أن اتفاق سلفهم على شئ من الحجج القاطعة؛ فلم يكن عندهم مستند في إنكار نبوة عيسى عليه السلام إلا أقوال سلفهم؛ وكذلك كان حالهم في كثير من الأحكام.

(١) أى كانوا يقولون: كُتِبَ علينا الحرب الشديد مع النبي الذى سيظهر فى أولاد إسماعيل فكاننا أمرنا بمخالفته، لا باتباعه. (٢) سورة البقرة ٧٦ (٣) الافتراء على الله: نسبة ما يكتبونه بأيديهم إلى الله تعالى وإلى التوراة (٤) أى بأصل الكتاب والشرعة.

سبب التساهل وارتكاب المناهي:

وأما التساهل في تنفيذ أحكام التوراة، وأرتكاب البخل والحرص، فظاهر أنه من مقتضيات النفس الأمارة، وهي تغلب الناس جميعاً إلا من شاء الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(١)

ولكن هذه الرذيلة^٢ قد تلونت في أهل الكتاب بلون آخر؛ وهو أنهم كانوا يتكلفون تصحيحها بتأويل فاسد، وكانوا يبرزونها في صبغة الدين أسباب استبعاد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

وأما استبعاد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فأسبابه:

١- اختلاف عادات الأنبياء وأحوالهم في إكثار التزوج والإقلال منه، وما أشبه ذلك.

٢- واختلاف شرائعهم.

٣- واختلاف سنة الله تعالى في معاملة الأنبياء

٤- وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم من بنى إسماعيل، بعد ما كان جمهور الأنبياء من بنى إسرائيل.

٥- وأمثال هذه الأسباب.

النبوة ومنهجها في إصلاح الناس:

والأصل في هذه المسئلة: أن النبوة كائنة لإصلاح نفوس الناس، وتهذيب عباداتهم وتعديل عاداتهم، لا لإنشاء أصول البر والإثم؛ ولكل قوم عادات في العبادات، وتدبير المنزل، والساسة المدنية، فإذا ظهرت فيهم النبوة فلا تستأصل هذه العادات بالمرّة، ولا تضع لهم عادات جديدة، بل تميز فيما بين العادات، فما كان منها صالحاً مطابقاً لرضى الله تعالى تُبقي، وتحفظه، وما كان منها مخالفاً للإصل، منافياً لرضى الله تعالى تُغيره حسب

(١) سورة يوسف ٥٣ (٢) الرذيلة: ضد الفضيلة، والجمع رذائل.

الضرورة وتعذله.

وكذلك يكون التذكير بآلاء الله، وبأيام الله على الأسلوب الذى هو معروف عندهم، وشائع لديهم؛ فهذا هو السبب فى اختلاف شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

اختلاف الشرائع كاختلاف وَصَفَاتِ الطَّيِّبِ

وهذا الاختلاف فى الشرائع كالاختلاف فى وصفات الطيب : فإنه إذا دُبِّرَ أمر المريض يصف لأحدهما دواء وغذاء باردًا ، ويأمر الآخر بدواء وغذاء حار ، وغرض الطيب من معالجتهم واحد ، وهو إصلاح مزاجهما ، وإزالة المواد الفاسدة منهما ، لا غير ؛ ويمكن أن يصف الطيب فى كل منطقة أدوية وأغذية مختلفة ، تلائم أهلها ، وكذلك يختار فى كل فصل من الفصول علاجا مختلفا يناسب ذلك الفصل .

كذلك لما أراد الطيب الحقيقى — جلُّ مجده — معالجة من ابتلى بالمرض النفسانى ، وتقوية القوة الملكية ، وإزالة الفساد الطارئ عليهم ، اختلفت المعالجة بحسب اختلاف أرقام كل عصر وعاداتهم ، ومشهوراتهم ، ومسلمااتهم .

أنموذج اليهود

وعلى كل ، فإن أردت أن ترى أنموذج^(١) اليهود ، فانظر إلى علماء السوء الذين يطلبون الدنيا ، ويولعون بتقليد السلف ، ويُعرضون من نصوص الكتاب والسنة ، ويستندون إلى تعمق عالم وتشدُّده ، أو إلى استحسانه ، فأعرضوا عن كلام الشارع المعصوم ، وجعلوا الأحاديث الموضوعة ، والتأويلات الفاسدة قدوة ، فانظر كأنهم هم !

(١) الأنموذج والنموذج: مثال الشيء أصلهما كلمة فارسية ، وهى نمونـه .

ذكر النصارى

عقيدة التثليث والرد عليها

أما النصارى: فكانوا مؤمنين بسيدنا عيسى عليه السلام، وكان ضلالهم: أنهم يزعمون أن لله تبارك وتعالى ثلاثة أجزاء متغايرة بوجه، ومتحدة بآخر؛ وكانوا يسمونها "الأقانيم"^(١) "الثلاثة":

أحدها: الأب؛ وهو يازاء مبدأ العالم^(٢)

والثاني: الابن؛ وهو يازاء الصادر الأول الذى هو معنى عام شامل لجميع الموجودات^(٣)

والثالث: روح القدس؛ وهو يازاء العقول المجردة.

وكانوا يعتقدون أن أقنوم "الابن" تدرع^(٤) بروح عيسى عليه السلام أى كما أن جبرئيل عليه السلام قد يظهر فى صورة الإنسان، كذلك ظهر الابن فى صورة روح عيسى عليه السلام؛ فعىسى إله وابن إله وبشر أيضاً فى وقت واحد؛ وتجرى عليه الأحكام البشرية والإلهية معاً.

وكانوا يتمسكون فى إثبات هذه العقيدة ببعض نصوص الإنجيل التى أطلق فيها لفظ "الابن" على عيسى عليه السلام^(٥)، وكذلك يستدلون بالآيات

(١) الأقانيم جمع الأقنوم، وهى كلمة سريانية، معناها: الشخص (Person) والأصل (٢) قارن الإمام المصنف رحمه الله مصطلحات النصارى بمصطلحات الفلاسفة؛ والفلاسفة يعنون بمبدأ العالم ذات الواجب تعالى، وبالصادر الأول العقل الأول، وبالعقول المجردة العقول العشرة؛ والعقل عندهم: جوهر مستغن فى أفعاله عن الآلات الجسمانية، متوسط بين الواجب ومصنوعاته فى إفاضة الوجود (٣) الصادر الأول أى العقل الأول عند الفلاسفة سبب لوجود جميع الكائنات، فهو شامل لجميع الموجودات بهذا المعنى. وهو عند أرباب الحقائق: الوجود المنبسط المخلوق، ومنه وجد العالم بحذافيره (٤) تدرع أى تقمص (٥) راجع إنجيل مرقس ١٣: ٣٢ وإنجيل لوقا ٢٣: ٤٦ والمواضع الكثيرة من إنجيل يوحنا.

التي نُسب فيها عيسى عليه السلام بعض أفعال الله تعالى إلى نفسه ^(١) وجواب الإشكال ^(٢) الأول : على تقدير صحة نصوص الإنجيل، وأنه ليس فيها تحريف: أن لفظ "الابن" في العهد القديم، كان مستعملاً بمعنى المحبوب والمقرب والمجتنى، كما يدل عليه كثير من القرائن في الإنجيل. وجواب الإشكال الثاني: أن تلك النسبة على طريق الحكاية؛ كما يقول رسول الملك: "إنّا فتحنا البلدَ القلاني" و "لقد حطمنا القلعة القلانية" وفي الحقيقة هذا الأمر راجع إلى الملك؛ وأما الرسول فإنما هو ترجمان الملك فحسب.

والجواب الثاني: أنه يحتمل أن يكون الوحي إلى عيسى عليه السلام عن طريق انطباع ^(٣) المعاني في لوح قلبه من قِبَل العالم العلوي، لا عن طريق تمثّل جبرئيل عليه السلام في صورة البشر، وإلقاء الكلام إليه؛ فيسبب هذا الانطباع جرى منه عليه السلام كلام مشعر بنسبة تلك الأفعال إلى نفسه؛ والحقيقة غير خفية.

وبالجملة: فقد ردّ الله تعالى هذا المذهب الباطل، وبَيَّن أن عيسى عبدُ الله وروحه المطهرة التي نفخها في رَجَم مريمَ الصديقة، وأنه تعالى أيده بروح القدس، وحاطه ^(٤) عليه السلام بعناية خاصة.

وبالجملة: فلو فرضنا أن الله سبحانه وتعالى ظهر في الكسوة الروحية، التي هي من جنس الأرواح ^(٥) وتدرّج بالبشرية، فلا ينطبق لفظ "الاتحاد" على هذا

(١) كما في الأصحاح الثامن من إنجيل متى: (جاء أبرص فقال لعيسى: يارب إن شئت فأنت قادر على تطهيرى، فمدّ يسوع يده ولمسه، وقال: "قد شئت فاطهر" فَطُهِرَ للوقت من برصه (الآيات ١-٣) (٢) الإشكال بمعنى الاشتباه والالتباس، من أشكل الأمر: إذا التبس (٣) الانطباع (تجهنأ، دُحِلنا، بخر جاتا) مطاوع لطبع (٤) حاط حَوْطًا الشيء: حفظه وتعهّده بحلب ما ينفعه، ودفع ما يضرّه (حَفَظْتَ كَرْتًا، تَهَيَّأْتِي كَرْتًا) (٥) أى أن الكسوة الروحية أيضًا روح من الأرواح.

المعنى عند التدقيق والإمعان، إلتسامح؛ وأقرب الألفاظ لهذا المعنى: هو "التقويم" ومثله^(١)؛ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

أنموذج النصارى

وإن شئت أن ترى نموذجاً لهذا الفريق، فانظر اليوم إلى أولاد المشايخ والأولياء، ماذا يظنون بآبائهم؟ وإلى أى حد وصلوا بهم! ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٢)

عقيدة مصلوبية المسيح والرد عليها

ومن ضلالاتهم أيضاً: أنهم يجزمون بأن عيسى عليه السلام قد قُتل، مع أن الواقع خلاف ذلك، وقد شبه لهم، والتبس عليهم الأمر، فظنوا رفعه إلى السماء قتلاً، ورووا هذا الغلط كابراً عن كابر، فكشف الله تعالى الستار عن حقيقة الأمر في القرآن العظيم قائلاً: ﴿وَمَا قُتِلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾^(٣) وأما ما ذكر في الإنجيل من قول عيسى عليه السلام في هذا الباب^(٤) فمعناه: أنه إخبار بجرأة اليهود، وإقدامهم على قتله؛ ولكن الله تعالى أنجاه من هذه المهلكة.

(١) حاصل ما قاله الإمام المصنف رحمه الله: أن النصارى يقولون بالاتحاد بين الله تعالى وبين عيسى عليه السلام بأن الله تعالى تقمّص بشرية عيسى عليه السلام، فصار متحداً معه، فردّ عليهم المصنف رحمه الله، وقال: لو فرضنا أن الله تعالى صار روحاً في أول الأمر، ثم تقمّص بشرية عيسى عليه السلام ثانياً، فلا ينطبق عليه لفظ "الاتحاد" أى لم يصر سبحانه وتعالى مع هذا متحداً مع عيسى عليه السلام في النظر الممغن؛ لأن الله تعالى بمنزلة الروح، وبشرية عيسى بمنزلة الجسد، والروح لا تكون متحدة مع الجسد أبداً، بل تكون مقومة ومعدّلة فحسب، فكيف يقول الظالمون بالاتحاد بينه تبارك وتعالى وبين عبده عيسى عليه الصلاة والسلام؟! (٢) سورة الشعراء ٢٢٧ (٣) سورة النساء ١٥٧ (٤) جاء في إنجيل متى (٢٦: ٤٥): انظروا قد اقتربت تلك الساعة، وابن الناس يُصلب بأیدی الفجار الظلمة.

وأما كلام الحواريين^(١) فإنه ناشٍ عن اشتباه الأمر، وعدم وقوفهم على حقيقة الرفع الذى لم يكن مألوفاً لعقولهم، ولالأسماعهم.

تحريفهم فى بشارة الفار قليط^(٢)

ومن ضلالاتهم أيضاً: أنهم يقولون: إن الفار قليط الموعود هو عيسى عليه السلام نفسه، الذى جاء بعد قتله إلى الحواريين، وأوصاهم بالتمسك بالإنجيل^(٣) ويقولون: إن عيسى عليه السلام أوصاهم أيضاً بأن المتنبئين سيكثرون، فمن سمّانى فاقبلوا كلامه، وإلا فلا.

وقد بين القرآن العظيم أن بشارة عيسى عليه السلام تصدق على نبينا صلى الله عليه وسلم، لا على الصورة الروحية لعيسى عليه السلام؛ لأنه قد صُرح فى الإنجيل بأن الفار قليط يمكث فيكم مدة طويلة، ويعلم العلم، ويزكى الناس؛ ولا يظهر هذا المعنى فى غير نبينا صلى الله عليه وسلم^(٤).

وأما ذكر عيسى عليه السلام وتسميته فالغرض منه التصديق بنبوته، لا أن يتخذه ربا، أو يعتقد بأنه ابن الله.

ذكر المنافقين

نفاق الاعتقاد ونفاق العمل

أما المنافقون: فكانوا على قسمين:

١- طائفة منهم يقولون بالسنتهم: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، وقلوبهم مطمئنة بالكفر، ويضمرون^(٥) الجحود الصرف فى أنفسهم، قال الله تعالى فى

(١) أى إخبار الحواريين بقتل عيسى عليه السلام (٢) فار قليط (Peroclitus) كلمة سريانية، معناها: أحمد (أفعل التفضيل من الحمد) أى الذى يحمد الله تعالى أكثر من كل أحد (٣) كما فى الباب الثانى من كتاب الأعمال، وراجع إظهار الحق (٢): ١٩٧-٢٠١ (٤) لأن روح عيسى عليه السلام لم تمكث عندهم الإقليلا، على زعمهم (٥) أضمر الشئ: أخفاه

حقهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١)
٢- وطائفة دخلوا في الإسلام مع ضعف فيه.

مظاهر نفاق العمل

١- فمنهم من يعتاد موافقة قومهم: إن ثبت القوم على الإيمان ثبتوا، وإن رجع القوم إلى الكفر رجعوا.

٢- ومنهم من استولى على قلوبهم الانسياق^(٢) وراء اللذات الدنيوية الدنيئة، بحيث لم يدر في قلوبهم مكانا لحب الله، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم.
٣- ومنهم من تملك قلوبهم الحرص على المال والحسد والجفد، ونحو ذلك من الرذائل، بحيث لم يبق في قلوبهم محل لحلاوة الابتهاال والمناجاة، ولا لبركات العبادات.

٤- ومنهم من انغمسوا في شئون المعاش واشتغلوا بها، حتى لم يبق لديهم فرصة للاهتمام بأمر الآخرة، ولترقبها والتفكير فيها.

٥- ومنهم من تخطر ببالهم ظنون واهية وشبهات ركيكة في رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وإن لم يبلغوا إلى أن يخلعوا ربة الإسلام عن عنقهم، وينفضوا أيديهم منه بتاتا.

وسبب تلك الشكوك: جريان الأحكام البشرية على نبينا صلى الله عليه وسلم، وظهور الملة الإسلامية في صورة سيطرة الملوك على أطراف البلاد، وأمثال ذلك.

٦- ومنهم من حملتهم محبة القبائل والعشائر على أن يبذلوا الجهد البليغ في نصرتهم، وتقويتهم وتأييدهم، ولو كان ذلك على مناة أهل الإسلام؛ ويضعفون أمر الإسلام عند التعارض، ويلحقون به الضرر.

(٢) سورة النساء ٤٥ (٣) الانسياق: مطاوع ساقه أى تبع غيره ومشى خلفه.

الكلام حول قسمي النفاق:

وهذا القسم من النفاق^(١) هو نفاق الأعمال والأخلاق، ولا يمكن الاطلاع على النفاق الأول بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه من الأمور المغيبة، ولا يمكن الاطلاع على مكونات القلوب.

والنفاق الثاني كثير الوقوع، لاسيما في عصرنا، وإليه جاءت الإشارة في الحديث الشريف: "أربع من كنَّ فيه كان منافقا خالصاً: إذا أُوتِمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"^(٢) وقال: "هَمُّ المنافق بطنه، وهَمُّ المؤمن فرسه"^(٣) إلى غير ذلك من الأحاديث.

الغرض من ذكر أحوال المنافقين في القرآن العظيم

وقد كشف الله تعالى في القرآن العظيم عن معائب المنافقين وأعمالهم، وذكر من أحوال الفريقين أشياء كثيرة، لتحترز الأمة بأسرها منها.

نموذج المنافقين

وإن شئت أن ترى نموذجاً للمنافقين، فانطلق إلى مجالس الأمراء، وانظر إلى مُصاحبيهم وندمائهم، يُؤثرون رضى الأمراء على رضى الله تعالى. ولا فرق عند المصنف بين المنافقين الذين سمعوا كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة ثم نافقوا، وبين هؤلاء المنافقين الذين وُلدوا في هذا الزمان، ثم علموا أحكام الشريعة بطريق القطع واليقين، ثم أقدموا على خلافها، وانحرفوا عنها.

وكذلك طائفة من المعقوليين الذين تمكّنت في خواطرهم شكوك وشبهات كثيرة، ونسوا الدار الآخرة، فهم أيضاً نموذج المنافقين.

(١) يعنى القسم الثانى بجميع أنواعه (٢) رواه الستة إلا ابن ماجه عن ابن عمرو رضى الله عنهما (٣) لم أجده مع الجهد البليغ

القرآن كتاب كل عصر

وعلى كل ، فإذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا، كلا، بل مامن بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو موجود اليوم بطريق الأنموذج، كما ورد في الحديث الشريف: "لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"^(١) فمقصود القرآن الكريم بيان كليات تلك المفاسد، لا خصوص الحوادث.

هذا ماتيسر لي في هذا الكتاب من بيان عقائد الفرق الضالة، والردود عليها؛ وأظن أن هذا القدر كاف في فهم معاني آيات الجدل إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

في

بقية مباحث العلوم الخمسة

بيان التذكير بالآء الله

لِيَعْلَمَ أن نزول القرآن الكريم إنما كان لإصلاح النفوس البشرية سواء كانوا عرباً أو عجماء، بدواً أو خُصراً؛ فلذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن لا يُخاطب الناس في التذكير بالآء الله إلا بما تسعه أذهانهم، وتُحيط به مداركهم، ولا يُبالع في البحث والتحقيق مبالغة زائدة؛ فسيق الكلام في أسماء الله تعالى وصفاته بوجه يمكن فهمه، والإحاطة به بإدراك وفطنة خلق أكثر أفراد الإنسان عليهما في أصل خلقتهم، من دون حاجة إلى ممارسة الفلسفة الإلهية ومزاولة علم الكلام.

(١) حديث متفق عليه، وتماهه: "شيراً بشراً، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم" مشكوة رقم الحديث ٥٣٦١ كتاب الرقاق، باب تغير الناس.

إثبات الذات وبيان الصفات

فأثبت سبحانه وتعالى ذات المبدأ إجمالاً ، إذ أن معرفته تعالى مركوزة في فطرة بنى آدم؛ لا ترى طائفة منهم في الأقاليم الصالحة، والأماكن القريبة من الاعتدال ينكرون ذلك.

ولما كان إثبات الصفات الإلهية بطريق الإمعان، وتحقيق الحقائق، مستحيلاً بالنسبة إلى أفراد الإنسان؛ ولو لم يطلعوا على صفاته تعالى إطلاقاً لم يصلوا إلى معرفة الربوبية التي هي أنفع الأشياء في تهذيب النفوس؛ فكان من حكمة الله تعالى: أنه اختار شيئاً من الصفات البشرية الكاملة التي يعرفونها، ويجرى التمدُّح بوجودها فيما بينهم، فاستعملها بإزاء المعاني الدقيقة الغامضة التي لا مدخل للعقول البشرية في ساحة جلالها؛ وجعل الأصل المضَّرَح بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ترياقاً للداء العُضال من الجهل المركب؛ ومنع من إثبات الصفات البشرية التي تثير الأوهام إلى العقائد الباطلة، كإثبات الولد والبكاء والجزع له تعالى شأنه.

صفاته تعالى توقيفية

وإن أمعنت النظر في مسألة الصفات الإلهية تجلى لك أن الجرى على منسطرة العلوم الإنسانية، غير المكتسبة، وتمييز صفات يجوز أن تُنسب إلى الله تعالى، ولا يقع بها خلل، عن الصفات التي يؤدي إثباتها إلى الأوهام الباطلة، أمر دقيق خطير للغاية، لا يدرك غوره جمهور الناس؛ فلا جرم كان هذا العلم توقيفياً، لم يُسمح فيه بالبحث بحرية وإطلاق.

بيان آلائه تعالى وآيات قدرته:

واختار سبحانه وتعالى من آلائه وآيات قدرته ما يستوى في فهمه الحضري والبدوي، والعربي والعجمي؛ ولأجل ذلك لم يذكر النعم الروحانية

المخصوصة بالعلماء والأولياء،^(١) ولم يُخبر بالنعم الإرتفاقية المخصوصة بالملوك^(٢)؛ وإنما ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغي ذكره، مثل خلق السموات والأرض، وإنزال المطر من السحاب، وتفجير البنابيع فى الأرض، وإخراج أنواع الثمار والحبوب والأزهار بالماء، وإلهام الصنائع والجرف الضرورية، وخلق القدرة لممارستها ومزاولتها.

وقد نبّه فى مواضع كثيرة على اختلاف أحوال الناس عندهجوم المصائب، وانكشافها ببيان الأمراض النفسانية الكثيرة الوقوع.^(٣)

بيان التذكير بأيام الله

واختار سبحانه وتعالى من أيام الله — أى من الوقائع التى أحدثها الله تعالى من قبيل تنعيم المطيعين، وتعذيب المجرمين — ما قرع أسماعهم^(٤) من قبل وكانوا قد سمعوا عنه بالإجمال، مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود التى تلقاها العرب أباعن جد؛ ومثل قصص إبراهيم، وقصص أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام التى ألفتها أسماعهم لطول اختلاط العرب مع اليهود؛ ولم يذكر القصص الغريبة، غير المألوفة للعرب، ولأخبار مجازاة الفارس والهنود.^(٥)

(١) كفرح كشف النكات النافعة، ومسرة حل المعضلات، وكحلاوة العبادة، والانبساط برؤية الأنوار الإلهية. (٢) النعم الإرتفاقية : هى التى يحتاج إليها الرجل، ليقضى بها حاجاته النوعية من الأكل والشرب والجماع والاستظلal من الشمس والمطر، والاستدفاء فى الشتاء، وغيرها (يعنى زندگی بر کرنے کے لئے ضروری سامان) (٣) أى تغيير مواقف الناس عند الشراء والصفراء، وأوضح سبحانه وتعالى ذلك بأمثلة الأمراض النفسانية الكثيرة الوقوع ليفهمها جميع الناس ، كما قال تعالى: "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا" (المعارج ١٩-٢١) (٤) قرع سمعه أى وقع فى أذنه (٥) المراد بأخبار مجازاة الفارس: حروبهم وملاحمهم، كقصص رستم، واسكندر، ودارا وغيرها؛ والمراد بأخبار مجازات الهنود أيامهم الشهيرة، كحرب مهابهارت، وغيرها.

ذكر من القصص ما هو الغرض منها

وانتزع سبحانه وتعالى من القصص المشهورة جماعاً^(١) تنفع في التذكير والموعظة ، ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها .
والحكمة في ذلك : أن العوام إذا سمعوا قصة نادرة غاية الندرة ، أو ذكرت القصة عندهم بجميع خصوصياتها وتفصيلها ، فإن طباعهم تميل إلى نفس القصة ، ويفوتهم الغرض الأساسى الذى هو التذكير .

ومثال ذلك ما قاله بعض العارفين : "إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع فى التلاوة ، ولما بدأ المفسرون يتكلمون فى الوجوه البعيدة فى التفسير ، أصبح علم التفسير نادراً كال معدوم " .

القصص المتكررة فى القرآن :

ومما تكرر من القصص فى القرآن العظيم .

• قصة خلق آدم من الطين ، وسجود الملائكة له ، واستكبار الشيطان عنه ، وكونه ملعوناً ، وسعيه بعد ذلك فى إضلال بنى آدم .

• وقصص مُحاجة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام مع شعوبهم وأقوامهم فى توحيد الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستكبار الأقوام عن الإيمان ، وإدلائهم^(٢) بشبهات ركيكة ، وردود الأنبياء عليها ، وابتلاء الأقوام بالعقوبة الإلهية ، وظهور نصره الله تعالى فى حق الأنبياء وأتباعهم .

• وقصص موسى عليه السلام مع فرعون وملائه ، ومع سفهاء بنى إسرائيل ومكابرتهم معه عليه السلام ، وعقاب الله تعالى لأولئك الأشقياء ، وظهور نصره الله تعالى متتالية لنجيه عليه السلام .

• وقصص داود وسليمان عليهما السلام ، وخلافتهما وآياتهما وكراماتهما .

(١) الجَماع : مجتمع أصله ، يقال : هذا الباب جَماعُ هذه الأبواب أى الجامع لها ، الشامل لمافيها . (٢) أدلى فلان بحجته أى أحضرها ، واحتج بها .

- وقصص مِحنة^(١) أيوب ويونس عليهما السلام، وظهور رحمة الله تعالى لهما.
- وقصة دعاء زكريا عليه السلام، واستجابة الله تعالى إياه.
- وقصص سيدنا عيسى العجيبة: من ولادته من غير أب، وتكلمه في المهد، وظهور الخوارق على يده.

فذكرت هذه القِصص في القرآن العظيم بأساليب متنوعة من الإيجاز والإطناب حسب مقتضى الأساليب المرعية في السور.

ما ذكرت من القصص مرة أو مرتين فقط

وأما القصص التي لم تتكرر في القرآن ، بل وردت في موضع أو موضعين فحسب، فهي:

- قصة رفع سيدنا إدريس عليه السلام مكانا عليا^(٢)
- وقصة مُحاجة سيدنا إبراهيم عليه السلام لنمرود ، ومشاهدته لإحياء الطير، وقصة ذبح ولده الوحيد^(٣).
- وقصة سيدنا يوسف عليه السلام.
- وقصة ولادة سيدنا موسى عليه السلام، وإلقائه في اليمّ وقتله القبطي، وتوجّهه إلى مَدْيَنَ، وتزوجه هناك، ورؤيته النار على الشجرة، وسماع الكلام منها.
- وقصة ذبح البقرة.
- وقصة لقاء موسى مع الخضر عليهما السلام.
- وقصة طالوت وجالوت.
- وقصة بلقيس^(٤)

(١) المحنة: البلاء والشدة ج مِحنة (٢) وذلك في سورة مريم ٥٧ والصحيح في معناه: أنه شرف النبوة والرفق عند الله تعالى، وعلو المرتبة بالذكر الجميل في الدنيا، قاله ابن كثير في تاريخه (١: ١٠٠) وما رُوي من رفعه إلى السماء الرابعة فهو من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، قاله ابن كثير في تفسيره (٣: ١٢٦) (٣) الوحيد: المنفرد (أكلوت) (٤) هي ملكة سبأ.

• وقصة ذى القرنين

• وقصة أصحاب الكهف

• وقصة الرجلين المتحاورين.

• وقصة أصحاب الجنة^(١).

• وقصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليه السلام لدعوة الدين، وقصة المؤمن الذى قتله الكفار شهيدا .

• وقصة أصحاب الفيل .

فليس الغرض من سرد هذه القصص فى القرآن الكريم معرفتها بأنفسها^(٢) بل الغرض الأساسى : هو أن ينتقل ذهن القارئ والسامع إلى شناعة الشرك والمعاصى، ومعاقبة الله تعالى عليها واطمئنان المؤمنين بنصرة الله تعالى وتأييده، وظهور لطافه وأفضاله تعالى فى حق عباده المخلصين.

بيان التذكير بالموت وما بعده

وقد ذكر جل شأنه من الموت وما بعده: كيفية الإنسان عند موته، وعجزه فى تلك الساعة، وعرض الجنة والنار عليه بعد الموت، وظهور ملائكة العذاب أمامه، وأشراط الساعة من نزول سيدنا عيسى عليه السلام^(٣) وخروج الدجال^(٤) وخروج دابة الأرض^(٥) وخروج ياجوجَ وماجوجَ، ونفخة الصعق، ونفخة القيام، والحشر والنشر، والسؤال والجواب، والميزان، وأخذ صحائف الأعمال بالأيمان والشمائل، ودخول المؤمنين الجنة، ودخول الكفار النار، وتخاصم أهل النار من التابعين والمتبوعين فيما بينهم، وإنكار بعضهم على بعض، ولعن بعضهم بعضا، واختصاص المؤمنين برؤية الله تعالى، وأنواع

(١) الجنة: الحديقة وقصتها فى سورة القلم (١٧: ٣٣) (٢) أى الاطلاع عليها، والتعرف على جزئياتها فحسب. (٣) جاء ذكره فى سورة الزخرف ٦١ فى قوله تعالى: وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّسَاعَةِ (٤) ينزل المسيح عليه السلام بعد خروج الدجال، فيقتله الله تعالى على يديه؛ وليس لخروجه ذكر فى القرآن أصْرُحُ من هذا (٥) جاء ذكرها فى سورة النمل ٨٢ وليس فى الأصل الفارسى ذكر خروج دابة الأرض .

العذاب من السلاسل والأغلال والحميم والفَساق والزقوم^(١) وأنواع النعم من الخور والقصور والأنهار، والمطاعم الهينة والملابس الناعمة^(٢) والنساء الجميلات، ومجالس أهل الجنة الفِكهة الطيبة المفرحة للقلوب.

ففرق سبحانه وتعالى هذه المطالب في مختلف السور بالإجمال والتفصيل، مراعيًا أساليبها الخاصة.

بيان علم الأحكام

والقاعدة الكلية في مباحث الأحكام: أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث بالملة الإبراهيمية الحنيفية، فلزم إبقاء شرائع تلك الملة، وأن لا يُحدَث أئى تغير في أمهات مسائلها؛ اللهم إلا تخصيصا لعموماتها، وزيادة للتوقيعات والتحديدات فيها، وأمثال ذلك.

ولما أراد الله سبحانه وتعالى أن يزجى العرب بنينا صلى الله عليه وسلم، ويزجى سائر الأقاليم بالعرب لزم أن تتكوّن مادّة^(٣) شريعته صلى الله عليه وسلم من رسوم العرب وعاداتهم^(٤).

فإذا أنعمت النظر فى مجموع شرائع الملة الحنيفية، ولاحظت عادات العرب ورسومهم، وتأملت فى تشريعه صلى الله عليه وسلم — الذى هو بمنزلة الإصلاح والتهديب لها^(٥) — علمت أن لكل حكم سببا، وفهمت أن لكل أمر ونهى مصلحة، وتفصيل ذلك يطول.

(١) السلاسل جمع السلسلة: حبل الحديد (زنجير) والأغلال جمع الغل: طوق من حديد أو جلد يُجعل فى اليد والعنق (يَهْزَى يَاطُوقُ)؛ والحميم: من الأضداد: الماء الحار والماء البارد؛ والفَساق: البارد أو المتنن أو مايسيل من صديد أهل النار؛ والزقوم: شجرة ذات شوكة، تنبت فى أصل الحميم (تَهْوِئُ) (٢) الخور جمع الحوراء: البيضاء؛ والقصور جمع القصر: المكان المرتفع؛ والهينة: المرغوبة؛ والناعمة: اللينة (٣) مادّة الشيء: أصوله وعناصره التى منها يتكوّن، حسيّة كانت أو معنوية، كما دة الخشب ومادّة البحث العلمى. (٤) أى مما توارثوها من الملة الحنيفية، وانحرفوا عن جاداتها فى كثير منها. (٥) أى لعادات العرب ورسومهم.

دور التشريع الإسلامى فى إصلاح الملة الحنيفية المحرّفة:

وبالجملة فقد كان تَطَرَّق إلى العبادات من الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج والذكر فتورّ عظيم، من جهة التسهيل فى إقامتها، واختلاف الناس فيها بسبب عدم معرفة أكثرها، وتسَرُّب التحريفات الجاهلية إليها، فأصلح القرآن العظيم ذلك الاختلال كله، وسوّاها حتى استقام أمرها.

وأما تدبير المنزل^(١) فقد كانت حدثت فيه رسوم ضارّة، وأنواع تعدّ وعنوّ؛ وهكذا اختلّت أحكام السياسة المدنية؛ فضبط القرآن العظيم لهما أصولاً، وحدد لهما حدوداً، وذكر من هذا الباب^(٢) أنواعاً من الكبائر، وكثيراً من الصغائر، لتحترز الأمة عنها.

وذكر مسائل الصلاة إجمالاً، واستعمل فيها لفظ " إقامة الصلاة " لفصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذان وبناء المساجد والجماعة والأوقات وكذلك ذكر مسائل الزكاة باختصار، وفصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أَيْماً تفصيل، وذكر الصوم فى سورة البقرة؛ وذكر الحج أيضاً فيها وفى سورة الحج؛ وذكر الجهاد فى سورة البقرة والأنفال وفى مواضع متفرقة أخرى؛ وذكر الحدود فى المائدة والنور؛ وذكر الموارث فى سورة النساء؛ وبَيَّن أحكام النكاح والطلاق فى سورة البقرة والنساء والطلاق وغيرها من السور.

التعريضات التى تحتاج إلى البيان

وإذا عرفت هذا القسم الذى تَعُمُّ فائدته جميع الأمة^(٣) فههنا قسم آخر وهو:

- أنه كان يُغَرِّض عليه صلى الله عليه وسلم سؤال، فيجيب عنه^(٤).
 - أو تقع حادثة وجود فيها المؤمنون بأنفسهم وأموالهم، ويُمسك المنافقون
- (١) أى الحياة العائلية (٢) أى من باب تدبير المنزل والسياسة المدنية. (٣) أى عرفت القسم الذى فيه خطاب عام، ولا يحتاج إلى معرفة شأن نزوله، (٤) كما سألوا عن الأهلة، وعن القتال فى الأشهر الحرم وعن الكلاله فأجيب عنه فى القرآن.

ويتبعون الهوى، فيمدح الله تعالى المؤمنين، ويذم المنافقين ويتوعدهم^(١).
 • أو تقع حادثة من قبيل الغلبة على الأعداء، وكف ضررهم، فَيُؤْمِنُ الله تعالى بذلك على المؤمنين، ويذكّرهم بتلك النعمة^(٢).
 • أو تحدث حالة تحتاج إلى تنبيه أو زجر أو إشارة أو إيماء^(٣) أو أمر، أو نهى، فينزل الله تعالى في ذلك الباب.
 فما كان من هذا القبيل فلا بد للمفسر من ذكر تلك القصص بطريق الإجمال أمثلتها:

وقد وردت التعريضات بقصة غزوة بدر في سورة الأنفال، وبقصة غزوة أحد في سورة آل عمران، وبقصة غزوة الخندق في سورة الأحزاب، وبقصة صلح الحديبية في سورة الفتح، وبغزوة بني النضير في سورة الحشر، وجاء الحث والتحريض على فتح مكة وغزوة تبوك في سورة البراءة، ووردت الإشارة إلى حجة الوداع في سورة المائدة، وجاءت الإشارة إلى قصة زواج زينب رضي الله عنها في سورة الأحزاب، وإلى تحريم السُّرِّيَّة^(٤) في سورة التحريم، وإلى قصة الإفك في سورة النور، وجاء ذكر استماع وفد الجن تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الجن والأحقاف، وذكرت قصة مسجد الضُّرار في سورة البراءة، وأشار إلى قصة الإسراء في أول سورة بني إسرائيل.

هذه الآيات من التذكير بأيام الله

وهذا القسم من الآيات الكريمة في الحقيقة نوع من أنواع التذكير بأيام الله؛ ولكن لما كان حل الإشارات فيها متوقفا على سماع القصة ميزت عن سائر أقسامها.

(١) كما وقع ذلك في غزوة تبوك (٢) كما وقع ذلك في غزوة الأحزاب. (٣) الإيماء : هو الإشارة الدقيقة. (٤) السُّرِّيَّة والجمع سَرَارِيٌّ: الأمة التي تقام في البيت؛ والأغلب أن اشتقاقها من السُّر.

الباب الثاني

فى

بيان وجوه الخفاء فى معانى نظم القرآن بالنسبة إلى
أهل هذا العصر، وأزالة ذلك الخفاء بأوضح بيان

ليُعلم أن القرآن العظيم قد نزل فى لغة العرب الفُحَّة^(١) المبينة الواضحة،
وفهم العرب معنى منظومه بسليقتهم التى جُبلوا عليها، كما قال تعالى:
﴿وَالْكِتَابَ الْمُبِينِ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿فَرَأَيْنَا غَرَبًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣) وقال
تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٤)

وكان من مرضى الشارع الحكيم عدم الخوض فى تأويل المتشابهات
القرآنية، وتصوير حقائق الصفات الإلهية، وتسمية المبهم، واستقصاء القصص،
وما أشبه ذلك؛ ولذلك قلما كانوا يستلونه صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك؛
ولهذا لم يُرفع فى هذا الباب من الأحاديث إلا شئ قليل.

ولكن لما مضت تلك الطبقة وتدخل العجم، وتركزت تلك اللغة
الأصيلة، واستعصى فهم المراد فى بعض المواضع، ومست الحاجة إلى
تفتيش اللغة والنحو، وجرت الأسئلة والأجوبة فيما بين الناس، وصُنِّفَتْ كتب
التفسير، لزم أن نذكر هذه المواضع الصعبة إجمالاً، ونورد لها أمثلة حتى
لا يحتاج المفسر عند الخوض فيها إلى زيادة بيان، ولا يضطر إلى المبالغة فى
الكشف عنها وشرحها.

أسباب صعوبة فهم المراد من الكلام

فنعول: إن عدم الوصول إلى المراد من اللفظ يكون:

(١) الفُحَّة تأنيث الفُح: الخالص الخالى من الشوائب الغريبة. (٢) سورة الزخرف ٢ (٣)

سورة يوسف ٢ (٤) سورة هود ١

- أحيانا بسبب استعمال لفظ غريب؛ وعلاجه : نقل معنى اللفظ عن الصحابة والتابعين ، وسائر أهل المعاني^(١).
 - وأحيانا لقلة الاطلاع على الناسخ والمنسوخ.
 - وأحيانا للغفلة عن أسباب النزول.
 - وأحيانا بسبب حذف المضاف أو الموصوف أو غيرهما.
 - وأحيانا لإبدال شيء بشيء ، أو إبدال حرف بحرف ، أو اسم باسم ، أو فعل بفعل ، أو لذكر الجمع مكان المفرد ، أو بالعكس ، أو للالتفات من الخطاب إلى الغيبة.
 - وأحيانا لتقديم ما حقه التأخير أو بالعكس .
 - وأحيانا بسبب انتشار الضمائر ، أو تعدد المراد من اللفظة الواحدة.
 - وأحيانا بسبب التكرار والإطناب.
 - وأحيانا بسبب الاختصار والإيجاز
 - وأحيانا بسبب استعمال الكناية والتعريض والمتشابه والمجاز العقلي .
- فينبغي للإخوة السعداء أن يطلعوا في مبدأ الكلام^(٢) على حقيقة هذه الأمور ، وعلى شيء من أمثلتها ، ويكتفوا بالرمز والإشارة في مواضع التفصيل.

الفصل الأول

في

شرح غريب القرآن

وأحسن الطرق في شرح الغريب ما صَحَّ عن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما^(٣)، عن طريق ابن أبي طلحة^(٤) واعتمد عليه (١) أهل المعاني: هم الذين لهم باع طويل وقدم راسخ في بيان معنى اللفظ القرآني، كالزجاج والفراء وغيرهما. (٢) يعني الكلام في تفسير القرآن الكريم (٣) هو صحابي جليل، جبر هذه الأمة، وُلد بمكة سنة ٣ ق هـ وتوفي بالطائف سنة ٦٨ هـ (٤) هو علي بن أبي طلحة سالم بن المخارق الهاشمي ولأء، ولم يصلنا عن نشأته وحياته شيء.

الفوز الكبير ٣

البخارى^(١) في صحيحه غالباً؛ ثم طريق الضحاك^(٢) عن ابن عباس، وأجوبة ابن عباس عن سؤالات نافع بن الأزرق^(٣)؛ وقد ذكر السيوطي^(٤) هذه الطرق الثلاث في كتابه: "الإتقان في علوم القرآن"^(٥).

ثم ما نقله البخارى من شرح الغريب عن أئمة التفسير^(٦)، ثم ما رواه سائر المفسرين عن الصحابة والتابعين وأتباعهم رضى الله عنهم من شرح غريب القرآن. وأرى من المناسب أن أجمع في الباب الخامس من هذه الرسالة جملة صالحة^(٧) من شرح غريب القرآن مع بيان أسباب النزول، واجعلها رسالة مستقلة^(٨) فمن شاء ضمها إلى هذه الرسالة، ومن شاء أفردها على حدة: ^(٩)
وللناس فيما يعشقون مذاهب

القدماء ربما يفسرون اللفظ بلازم معناه

ومما ينبغى أن يُعلم هنا: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ربما يفسرون اللفظ بلازم معناه؛ وقد يتعقب المفسرون المتأخرون ذلك التفسير القديم، من جهة تتبّع اللغة، وتفحص موارد الاستعمال^(١٠).

والغرض المطلوب في هذه الرسالة: ^(١١) سرّد تفسيرات السلف بعينها، ولنقدّها وتنقيحها موضع آخر غير هذا الموضع:

فلكل مقام مقال، ولكل نكتة مجال

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى: إمام الدينا وجبل الحفظ، صاحب الصحيح، وُلد سنة ١٩٤ هـ وتوفى سنة ٢٥٦ هـ (٢) هو ضحاك بن مزاحم الهلالي ولاء، البلخي الخراساني، أبو القاسم: مفسر، مات سنة ١٠٥ هـ (٣) نافع بن الأزرق الحرورى: من رؤس الخوارج، قتل سنة ٦٥ هـ (٤) هو عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى جلال الدين: إمام حافظ، ولد سنة ٨٤٩ هـ وتوفى سنة ٩١١ هـ له نحو ٦٠٠ مصنف (٥) كتاب ماتع جامع مطبوع، وضعه السيوطى كمقدمة لتفسيره، ذكر فيه علوم القرآن فى ثمانين نوعاً، وشرح الغريب فى النوع ٣٦ (٦) كمجاهد والحسن وقتادة وغيرهم. (٧) أى مقداراً كافياً، (٨) سَمّاها الإمام المصنف بفتح الخبير بما لا بد من حفظه فى علم التفسير (٩) لم نُضم فتح الخبير مع الفوز الكبير فى طبعنا هذا، لعدم شموله فى الدرس فى المدارس الإسلامية بالهند. (١٠) مع أن تعقيهم غير ملائم (١١) يعنى فتح الخبير.

الفصل الثانى

فى

معرفة الناسخ والمنسوخ

من المواضع الصعبة فى علم التفسير التى مباحثها كثيرة، والاختلاف فيها واسع: معرفة الناسخ والمنسوخ ؛ ومن أقوى وجوه الصعوبة: اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

معنى النسخ عند المتقدمين:

والذى وضع لنا باستقراء^(١) كلام الصحابة والتابعين: أنهم كانوا يستعملون "النسخ" فى معناه اللغوى، الذى هو "إزالة شيء بشئ" لا بمعنى مصطلح الأصوليين^(٢) فمعنى النسخ عندهم: "إزالة بعض أوصاف الآية بآية أخرى"^(٣) سواء كان ذلك:

- ببيان انتهاء مدة العمل.
- أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر.
- أو ببيان كون القيد اتفاقياً.
- أو بتخصيص عام.
- أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ما قيس عليه ظاهراً.
- أو بإزالة عادة من العادات الجاهلية

(١) استقراء الأمور: تتبعها لمعرفة أحوالها وخواصها (جاءه لينا) (٢) النسخ عند الأصوليين: بيان انتهاء حكم شرعى، بطريق شرعى، متراخ عنه، حتى لا يجوز امتثاله؛ وبعبارة أخرى: إنه الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم، على وجه لولاه لكان ثابتاً به، مع تراخيه عنه، ومغزى الحدين: أن المنسوخ لا يبقى حكمه فى وجه من الوجوه، ولا يكون له محمل من المحامل، ولا يجوز امتثاله فى وقت من الأوقات. (٣) فالنسخ عند المتقدمين مطلق التغير، الذى يطرأ على بعض الأحكام.

• أو يرفع شريعة^(١) من الشرائع السابقة.

عدد الآيات المنسوخة عند المتقدمين:

فأتسع باب النسخ عندهم، وكثر جَولان العقل فيه، واتسعت دائرة الاختلاف لديهم، ولذلك بلغت الآيات المنسوخة عندهم إلى خمس مائة آية؛ بل إذا حققت النظر تجد ما غير محصورة؛^(٢) وأما المنسوخ حسب اصطلاح المتأخرين فلا يتجاوز العدد القليل، لاسيما حسب ما اخترناه من التوجيه.

الآيات المنسوخة عند المتأخرين:

وقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي في "الإتقان" عن بعض العلماء ما ذكرناه آنفاً، بتقرير مبسوط كما ينبغي؛ ثم حرّر^(٣) المنسوخ طبق رأي المتأخرين، موافقاً لرأي الشيخ ابن العربي^(٤) فعده قريباً من عشرين آية؛ وللفقير في أكثرها نظر، فلنورد كلامه مع التعقيب^(٥).

فمن البقرة

١- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ الآية^(٦) منسوخة، قيل: بآية المواريث^(٧) وقيل: بحديث: لأَوْصِيَّةُ لِيَاوِثَ^(٨) وقيل بالإجماع، حكاه ابن العربي.

(١) الشريعة: القانون والحكم من الأحكام (٢) إذ لو عدّ مثل ذلك في النسخ والمنسوخ لعدّ جميع القرآن منه؛ إذ كلّه أو أكثره تغيير لما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من قبل. (٣) حرّر الكتاب: حسنة وأصلحه (٤) هو أبو بكر محمد بن عبد الله القاضي المالكي المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي ولد سنة ٤٦٨ هـ وتوفي سنة ٥٤٣ هـ وهو غير الشيخ ابن عربي الصوفي (٥) عَقِبَ على فلان: بين عيوبه وأغلاطه؛ وعَقِبَ الشيء: أتى بشي بعده (٦) سورة البقرة ١٨٠ وتام الآية: إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ، حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (٧) يعني بقوله تعالى: "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ" الآيات من سورة النساء ١١-١٤ (٨) رواه عشرة من الصحابة، وخرجه أصحاب السنن غير النسائي عن أبي أمامة، وغير أبي داود عن عمرو بن خارجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (انتهى) وتلقته الأئمة بالقبول.

قلت: بل هي منسوخة بآية: ﴿يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِكُمْ﴾ وحديث "لا وصية" مبين للنسخ.

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مِسْكِينٍ﴾^(١) قيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٢) وقيل: محكمة، ولا مقدرة^(٣)

قلت: عندي وجه آخر: وهو أن المعنى: وعلى الذين يطيقون الطعام (١) فدية؛ هي طعام مسكين؛ فاضمر قبل الذكر لأنه متقدم رتبة؛ وذكر الضمير، لأن المراد من الفدية هو الطعام؛ والمراد منه صدقة الفطر؛ عطف الله تعالى الأمر بالصيام في هذه الآية بصدقة الفطر، كما عطف الآية الثانية بتكبيرات العيد،

٣- قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَاءِكُمْ﴾^(٤) ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصَّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(٥) لأن مقتضاها^(٦) الموافقة فيما كان عليهم من تحريم الأكل والوطء بعد النوم؛ ذكره ابن العربي؛ وحكى قولاً آخر: أنه نسخ لما كان بالسنة^(٧)

قلت: معنى "كما كتب" التشبيه في نفس الوجوب فلا نسخ، إنما هو^(٨) تغيير لما كان عندهم قبل الشرع؛ ولم نجد دليلاً على أن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لهم ذلك؛ ولو سلم فإنما كان ذلك بالسنة^(٩)

٤- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية^(١٠) منسوخة بقوله تعالى:

(١) سورة البقرة ١٨٤ (٢) سورة البقرة ١٨٥ (٣) والآية للشيخ الفاني، وضمير يطيقونه يرجع إلى الصوم. (٤) أى يطيقون الإطعام، لكونهم أصحاب نُسب بقدره ممكنة (٥) سورة البقرة ١٨٧ (٦) سورة البقرة ١٨٣ (٧) أى مقتضى الآية الثانية (٨) أى أنه نسخ لما كان معمولاً عندهم، وثابت بالسنة. (٩) يعنى قوله تعالى: "أَجَلٌ لَكُمْ" الآية (١٠) فقوله تعالى: "أَجَلٌ لَكُمْ" ناسخ للحكم الذى كان ثابتاً بالسنة، وليس بناسخ لقوله تعالى: "كَمَا كُتِبَ". (١١) سورة البقرة ٢١٧ وتام الآية: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كِبَرٌ وَهَدًى عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ، وَلَا تَزَالُ الْوَن يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا" الآية.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ الآية^(١) أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة، قلت: هذه الآية لا تدل على تحريم القتال، بل تدل على تجويزه، وهى من قبيل تسليم العلة وإظهار المانع؛ فالمعنى: أن القتال فى الشهر الحرام كبير شديد، ولكن الفتنة أشد منه، فجاز فى مقابلتها؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياقها، كما لا يخفى.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلى قوله — متاعاً إلى الحول ﴿الآية﴾^(٢) منسوخة بآية: (أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ وَعَشْرًا)^(٣) والوصية منسوخة بالميراث؛ والسكنى ثابتة عند قوم، منسوخة عند آخرين بحديث: "ولاسكنى"^(٤).

قلت: هى كما قال منسوخة عند جمهور المفسرين؛ ويمكن أن يقال: يستحب أو يجوز للميت الوصية، ولا يجب على المرأة أن تسكن فى وصيته؛ وعليه ابن عباس؛ وهذا التوجيه ظاهر من الآية.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ الآية^(٥) منسوخة بقوله بعده: ﴿لَا يَكُلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٦)

قلت: هو من باب تخصيص العام: بينت الآية المتأخرة أن المراد ما فى أنفسكم من الإخلاص والنفاق، لا من أحاديث النفس التى لا اختيار فيها، فإن

(١) سورة التوبة ٣٦ والآية بتمامها: "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِىهِ أَنْفُسَكُمْ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ." (٢) سورة البقرة ٢٤٠ والآية بتمامها: "وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ؛ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ؛ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ." (٣) سورة البقرة ٢٣٤ والآية بتمامها: "وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا؛ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ." (٤) لم أجد هذا اللفظ فى حديث مرفوع، إنما هو قول عطاء فى البخارى (٢: ٨٠٤).

(٥) سورة البقرة ٢٨٤ (٦) سورة البقرة ٢٨٦.

التكليف لا يكون إلا فيما هو فى وسع الإنسان.

ومن آل عمران:

٧ - قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(١) قيل: إنه منسوخة بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٢) وقيل: لا، بل هو محكم.

وليس فيها آية يصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية.

قلت: ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ فى الشرك والكفر وما يرجع إلى الاعتقاد، ﴿وَمَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فى الأعمال: من لم يستطع الوضوء يتيمم، ومن لم يستطع القيام يصلى قاعداً؛ وهذا التوجيه ظاهر من سياق الآية، وهو قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

ومن النساء

٨ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيَّهُمْ﴾ الآية^(٣) منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٤).

قلت: ظاهر الآية أن الميراث للموالى^(٥) والبرو الصلة للمولى الموالاة^(٦) فلا نسخ.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية^(٧) قيل منسوخة^(٨) وقيل: لا، ولكن تهاون الناس فى العمل بها.

قلت: قال ابن عباس: هى محكمة، والأمر للاستحباب^(٩)، وهذا أظهر.

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّ الْقَاحِشَةَ﴾ الآية^(١٠) منسوخة بآية النور^(١١).

(١) سورة آل عمران ١٠٢ (٢) سورة التغابن ١٦ (٣) سورة النساء ٣٣ (٤) سورة الأنفال ٧٥ وسورة الأحزاب ٦ (٥) جمع المولى بمعنى القريب أى الميراث للأقرباء (٦) إذا أسلم رجل على يدرجل، وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح، وهو مولى الموالاة (٧) سورة النساء ٨ والآية بتمامها: "وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا" (٨) أى بآيات الموارث. (٩) الصحيح للبخارى ص ٣٨٦ وص ٦٥٨ (١٠) سورة النساء ١٥ والآية بتمامها: وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّ الْقَاحِشَةَ مِنْ بَنَاتِكُمْ فاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا. (١١) أى بآية الجلد، وهى قوله تعالى: "الرَّائِيَةُ وَالرَّائِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ" الآية (سورة النور ٢)

قلت: لانسخ في ذلك ، بل هو ممتد إلى الغاية ، فلما جاءت الغاية بين النبي صلى الله عليه وسلم أن السبيل الموعود كذا وكذا^(١) فلانسخ .

ومن المائدة

١١- قوله تعالى: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الآية^(٢) منسوخة بإباحة القتال فيه .

قلت: لانجد في القرآن ناسخا له ، ولا في السنة الصحيحة ؛ ولكن المعنى : أن القتال المحرم يكون في الشهر الحرام أشد تغليظا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الخطبة: " إن دمانكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا " ^(٣)

١٢- قوله تعالى: ﴿لَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ، أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية^(٤) منسوخة بقوله: ﴿وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾^(٥) .

قلت: معناه: إن اختلفت الحكم فاحكم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهوائهم ؛ فالحاصل أنه لنا أن نترك أهل الدمة أن يرفعوا القضية إلى زعمائهم ، فيكحموا بما عندهم ، ولنا أن نحكم بما أنزل الله علينا .

١٣- قوله تعالى: ﴿أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾^(٦) منسوخ بقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ

(١) رواه مسلم ، مشكوة كتاب الحدود ، الفصل الأول ، رقم الحديث ٣٥٥٨ . (٢) سورة المائدة ٢ وتامم الآية : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجْلُوْا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ، وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَفَتَحُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا " (٣) رواه البخاري في صحيحه (١ : ٢٣٤) (٤) سورة المائدة ٤٢ وتامم الآية : " وَإِنْ تَعَرَّضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " (٥) سورة المائدة ٤٩ وتامم الآية : " وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ ، وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يُفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ " . (٦) سورة المائدة ١٠٦ والآية بتمامها : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ، إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْكُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ ؛ تَخْشَوْنَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَأَنْتُمْ بِهِنَّ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَلَا تَكُنْ شَهِادَةَ اللَّهِ ، إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِيمَانِ " .

عَذَلِ مُنْكُمْ ﴿١﴾.

قلت: قال أحمد بظاهر الآية^(٢) ومعناها عند غيره: أو آخران من غير أقاربكم، فيكونان من سائر المسلمين.

ومن الأنفال:

١٤- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ الآية^(٣) منسوخة بالآية بعدها^(٤).

قلت: هي كما قال منسوخة.

ومن البراءة

١٥- قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾^(٥) منسوخة بآيات العذر، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ الآية^(٦) وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ﴾ الآيتين،^(٧) وبقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾^(٨)

قلت: خفافا أى مع أقل مايتأتى به الجهاد من مركوب وعبد للخدمة، ونفقة يقنع بها؛ وثقالاً أى مع الخدم الكثيرين، والمراكب الكثيرة، فلا نسخ؛ أو نقول: ليس النسخ متعينا^(٩)

(١) سورة الطلاق ٢ والآية بتامها: "فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُمْ فَاذْكُرُونَهُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ لَارُؤُهُمْ بِمَعْرُوفٍ، وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدَلٍ مِّنْكُمْ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا" (٢) أى يجوز عند أحمد رحمه الله فى أرض الغربه إذا لم يجد مسلمين أن يشهد كافرين. (٣) سورة الأنفال ٦٥ وتام الآية: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ" (٤) وهى قوله تعالى: أَلَن خُفِّ اللَّهُ عَنْكُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" (سورة الأنفال ٦٦) (٥) سورة البراءة ٤١ وتام الآية: "وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (٦) سورة الفتح ٧ (٧) سورة التوبة ٩١ و ٩٢ (٨) سورة التوبة ١٢٢ (٩) بل يجب عليه العمل عند هجوم العدو.

ومن النور

١٦- قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ الآية^(١) منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾^(٢).

قلت: قال أحمد بظاهر الآية؛ ومعناها عند غيره: أن مرتكب الكبيرة^(٣) ليس بكفء إلا للزانية؛ أو لا يستحب له^(٤) اختيار الزانية؛ وقوله: ﴿وَحُرْمَ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الزنا والشرك، فلا نسخ، وأما قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى﴾ فعام، لا ينسخ الخاص.

١٧- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ آذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ الآية^(٥) قيل: منسوخة، وقيل: لا، ولكن تهاون الناس في العمل بها.

قلت: مذهب ابن عباس رضى الله عنه: أنها ليست بمنسوخة؛ وهذا أوجه وأولى بالاعتماد.

ومن الأحزاب

١٨- قوله تعالى: ﴿لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ الآية^(٦) منسوخة بقوله تعالى:

(١) سورة النور ٣ والآية بتمامها: "الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرْمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ" (٢) سورة النور ٣٢ والآية بتمامها: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (٣) يعنى الوقاح والزنا (٤) أى للمسلم العفيف (٥) سورة النور ٥٨ والآية بتمامها: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ آذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (٦) سورة الأحزاب ٥٢ وتمام الآية: "لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ، وَلَوْ أَغْنَبَكَ حُسْنُهُنَّ، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا".

﴿إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ الآية^(١).

قلت: يحتمل أن يكون الناسخ مقدما في التلاوة، وهو الأظهر عندي.

ومن المجادلة

١٩- قوله تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا﴾ الآية^(٢) منسوخة بالآية بعدها^(٣).
قلت: هذا كما قال.

ومن الممتحنة

٢٠- قوله تعالى: ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾^(٤) قيل: منسوخ
بآية السيف^(٥)، وقيل: بآية الغنime^(٦) وقيل: محكم.
قلت: الأظهر أنها محكمة، ولكن الحكم في المهادنة^(٧) وعند قوة الكفار.

(١) سورة الأحزاب ٥٠ وتام الآية: "يَأْيُهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ
أُجُوزَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَبَنَاتِ عُمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ
وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ
يَسْتَكْبَحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ كَيْلًا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ؛ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا." (سورة المجادلة ٢)
١٢ والآية بتامها: "يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ
صَدَقَةٌ؛ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَظْهَرُ؛ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ." (٣) وهى قوله تعالى: "
أَمْ شَفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ؛ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (المجادلة ١٣)
(٤) سورة الممتحنة ١١ وتام الآية: "وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاتِبْتُمْ
فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ" (٥) معنى بآية
السيف قوله تعالى: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً (التوبة ٣٦) (٦) معنى
بآية الغنime قوله تعالى: "وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي
الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ" الآية (الأنفال ٤١) (٧) المهادنة: المصالحة،
هَادَنَهُ مَهَادَنَةً: صَالَحَهُ وَوَادَعَهُ.

ومن المزمّل:

٢١- قوله تعالى ﴿فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) منسوخ باخر السورة،^(٢) ثم نسخ الآخر بالصلوات الخمس.

قلت: دعوى النسخ بالصلوات الخمس غير مُتَّجِهَةٌ^(٣) بل الحق: أن أول السورة في تأكيد النَّدْب إلى قيام الليل، وآخرها في نسخ التأكيد إلى مجرد النَّدْب. قال السُّيُوطِيُّ موافقا لابن العربي: فهذه إحدى وعشرون آية منسوخة، على خلاف في بعضها؛ ولا يصح دعوى النسخ في غيرها؛ والأصح في آتِي الاستئذان والقسمة^(٤) الإحكام وعدم النسخ، فصارت تسع عشرة آية؛ وعلى ما حررنا لا يتعين النسخ إلا في خمس آيات^(٥).

الفصل الثالث في

معرفة أسباب النزول

ومن المواضع الصَّعبة أيضًا معرفة أسباب النزول؛ ووجه الصَّعوبة أيضًا اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

معنى: "نَزَلَتْ فِي كَذَا" عند المتقدمين

والذى يظهر من استقراء كلام الصحابة والتابعين رضى الله عنهم: أنهم كانوا لا يستعملون: "نزلت في كذا" لمجرد بيان الحادث الذى وقع فى زمنه صلى الله عليه وسلم، وكان سببا لنزول الآية؛ بل:

• ربما يذكرون بعض ما صدقت عليه الآية، مما حدث فى زمنه صلى الله عليه

(١) سورة المزمّل ٢ (٢) أى بقوله تعالى: "عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصَوْه لَنَابٍ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأْ وَرَأَيْتَ تَنْزِيلَ الْقُرْآنِ (المزمّل ٢٠) (٣) غير متجهة أى غير موجّهة (٤) آية الاستئذان هى الآية السابعة عشر؛ وآية القسمة هى الآية التاسعة (٥) وهى الآية الأولى، والخامسة، والرابعة عشرة، والامنة عشرة والتاسعة عشرة.

وسلم، أو حدث بعده صلى الله عليه وسلم، فيقولون: "نزلت في كذا"؛ ولا يلزم في هذه الصورة انطباق جميع القيود المذكورة في الآية، بل يكفي انطباق أصل الحكم فحسب.

• وقد يُبينون سؤالاً سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو حادثة حدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، واستنبط صلى الله عليه وسلم حكمها من الآية وتلاها عليهم في ذلك الباب، فيقولون: "نزلت في كذا"؛ وربما يقولون في هذه الصور "فأنزل الله تعالى قوله كذا" أو "فنزلت".

وكأنه إشارة إلى أن استنباطه صلى الله عليه وسلم ذلك الحكم من الآية، وإلحاقها في تلك الساعة في خاطره المبارك أيضاً نوع من الوحي والثقت في الرؤى، فلذلك يمكن أن يقال: "فأنزلت"؛ ولو عبر أحد عن ذلك بتكرار نزول الآية لكان له مسأغ أيضاً.

روايات المحدثين التي لا علاقة لها بأسباب النزول:

ويذكر المحدثون تحت آيات القرآن الكريم كثيراً من الأشياء، ليست هي في الحقيقة من قسم سبب النزول، مثل: استشهاد الصحابة رضي الله عنهم في مناظراتهم^(١)، بآية، أو تمثيلهم بها^(٢)، أو تلاوته صلى الله عليه وسلم آية للاستشهاد في كلامه الشريف، أو رواية حديث يوافق الآية في أصل الغرض، أو تعيين موضع النزول، أو تعيين أسماء المذكورين في الآية بطريق الإبهام، أو بيان طريق التلفظ بكلمة قرآنية، أو فضل سور وآيات من القرآن، أو بيان طريقة امتثاله صلى الله عليه وسلم بأمر من أوامر القرآن الكريم؛ فليس شيء من هذا في الحقيقة من أسباب النزول، وليس من شروط المفسر الإحاطة بها.

شرط المفسر في باب أسباب النزول:

إنما شرط المفسر معرفة أمرين:

(١) المناظرة: المباحثة العلمية (٢) تمثل بالشئ: ضربه مثلاً.

الأول : معرفة تلك القصص التي تعرض^(١) الآيات لها؛ فإنه لا يتيسر فهم إيماء الآيات إلا بمعرفتها.

والثاني : معرفة تلك القصة التي تخصّص العام، أو نحز ذلك من وجوه صرف الكلام عن الظاهر؛ فإنه لا يتأتى فهم المقصود من الآيات بدونها.

قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ رَوَايَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ

ومما ينبغي أن يُعلم هنا: أن قصص الأنبياء السابقين لم تُذكر في الأحاديث إلا قليلاً؛ فالقِصَص الطويلة العريضة التي يتجشم^(٢) المفسرون روايتها، كلّها منقولة عن علماء أهل الكتاب إلا ما شاء الله تعالى^(٣)، وقد جاء في صحيح البخاري مرفوعاً: "لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ"^(٤) معنى آخر لقولهم: "نزلت في كذا"

ولْيُعلم أيضاً أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كانوا يذكرون قِصَصاً جزئية لبيان مذاهب المشركين واليهود، وعاداتهم الجاهلية، لتتضح بها عقائدهم وتقاليدهم ويقولون: "نزلت الآية في كذا" ويريدون بذلك: أنها نزلت في مثل هذه سواء كانت تلك بعينها، أو ما شابهها، أو ما قاربها، ويقصدون إظهار تلك الصورة، لا خصوص القصص، بل يذكرونها لأجل أن هذه صورة صادقة لتلك الأمور الكلية؛ ولهذا تختلف أقوالهم في كثير من المواضع، وكل يَحْزُرُ الكلام إلى جانبه، وقصدهم في الحقيقة واحد؛ وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء رضى الله عنه حيث قال: "لا يكون الرجل فقيهاً حتى يُحِمِلَ الآية الواحدة على محامل متعددة"^(٥)

صورة قصة ولا قصة لها

وعلى هذا الأسلوب كثيراً ما يُذكر في القرآن العظيم صورتان: صورة

(١) عرض له بالقول: قال قولاً وهو يعنيه ويريده ولكن لم يصرّح به ولم يبينه. (٢) تجشم الأمر: تكلفه على مشقة (٣) كقصة موسى والخضر عليهما السلام المعروية في صحيح البخاري (٤) البخاري في كتاب التفسير ص ٦٤٤ و١٠٩٣ (٥) أخرجه ابن سعد وغيره.

سعيد، ويُذكر فيها بعض أوصاف السعادة؛ وصورة شقي، ويُذكر فيها بعض أوصاف الشقاوة؛ ويكون الغرض من ذلك: بيان أحكام تلك الأوصاف والأعمال، لا التعريض بشخص معين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَوْضَيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾^(١) ثم ذكر صورتين: صورة سعيد وصورة شقي؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ: مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا: مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا﴾^(٣).

وعلى مثل هذا تحمل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا: قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ الآية^(٥) وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(٦) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِغْ كُلُّ خَلَافٍ مُهِينٍ﴾^(٧).

ولا يلزم في هذه الصور أن تتوفر تلك الخصوصيات بعينها في شخص، كما لا يلزم في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾^(٨) أن توجد حبة بهذه الصفة؛ إنما المقصود: تصوير زيادة الأجر لا غير؛ فإن وجدت صورة توافق ذلك في أكثر الخصوصيات، أو في كلها، كان ذلك من قبيل: "لزوم مالم يلتزم"^(٩).

قد يَفْرُضُونَ السُّؤَالَ وَالْجَوَابَ فِي التَّفْسِيرِ:

وفي بعض الأحيان يُرَدُّ في القرآن على شبهة ظاهرة الورود، أو يجاب عن سؤال مَطْرُوقٍ مفهوم بسهولة، لقصد إيضاح الكلام السابق، لا لأجل أن

(١) سورة الأحقاف ١٥ (٢) سورة النحل ٢٤ (٣) سورة النحل ٣٠ (٤) سورة النحل ١١٢ (٥) سورة الأعراف ١٨٩ (٦) سورة المؤمنون ١ و ٢ (٧) سورة القلم ١٠ (٨) سورة البقرة ٢٦١ (٩) التزم الشيء: أوجه على نفسه ولزم الشيء: ثبت ودام فمعنى قوله: "لزوم مالم يلتزم": جوجا بانيس تماده هوگيا، یعنی هم خرابا هم ثواب!

أحدًا وجه هذا السؤال بعينه، أو أورد هذه الشبهة بعينها؛ وكثيرا ما يفترض^(١) الصحابة رضی الله عنهم في تقرير ذلك المقام سؤالاً ويشرحون الكلام في صورة السؤال والجواب؛ ولكن لونظرنا بإمعان النظر فالكل كلام واحد منسق، لا يَحتمل نزول بعض عقيب بعض، وجملة واحدة منتظمة^(٢) لا تُفك قيودها على أصل من الأصول.

قد يريدون التقدم والتأخر الرتبي لا الزماني

وقد يذكر الصحابة رضی الله عنهم التقدم والتأخر، ويريدون بذلك: التقدم والتأخر الرتبي، لا الزماني، كما قال ابن عمر رضی الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾^(٣): "إنما كان هذا قبل أن تُنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال"^(٤)؛ ومن المعلوم أن سورة البراءة آخر سورة نزلت، وهذه الآية في تضاعيف القِصص المتأخرة، وقد كانت فرضية الزكاة متقدمة عليها بأعوام؛ ولكن مراد ابن عمر رضی الله عنه: تقدم الإجمال على التفصيل بالرتبة.

شرط المفسر أمران:

وبالجملة: فالذي يشترط على المفسر في هذا الباب لا يزيد على أمرين:
الأول: معرفة قصص الغزوات وغيرها، مما وقع في الآيات الإيماء إلى خصوصياتها، فمالم تُعلم تلك القصص لا يتأتى فهم حقيقتها.
والثاني: الاطلاع على فوائد بعض القيود؛ وكذا أسباب التشديد في بعض المواضع، تتوقف معرفتها على أسباب النزول.
فن التوجيه:

وهذا المبحث الأخير^(٥) في الحقيقة فن من فنون التوجيه؛ ومعنى التوجيه:
(١) الفرض الباحث: اتخذ فرضاً ليصل إلى حل مسألة (فرض كرتا) (٢) انتظم الشيء: تألف وأتسق. (٣) سورة التوبة ٣٤. (٤) رواه البخاري في كتاب الزكاة وفي كتاب التفسير رقم الحديث ١٤٠٤ و ٤٦٦١ (٥) يعني مبحث ما يحتاج إليه المفسر.

بيان وجه الكلام؛ وحاصل هذه الكلمة : أنه:

• قد تقع فى الآية شبهة ظاهرة، لاستبعاد الصورة التى هى مدلول الآية، أو للتناقض بين الآيتين.

• أو يصعب فهم مدلول الآية على ذهن المبتدى.

• أو لاتستقر فى ذهنه فائدة قيد من القيود.

فإذا قام المفسر بحل هذه الإشكالات سعى ذلك توجيهها.

أمثلة التوجيه:

١- كما فى آية: ﴿يَاأَخْتَ هَارُونَ﴾^(١) فقد سألوا: أن المدة بين موسى وعيسى عليهما السلام طويلة، فكيف يكون هارون أخا لمريم؟ كأن السائل أضمر فى خاطره: أن هارون هذا هو هارون أخو موسى عليهما السلام؛ فأجاب صلى الله عليه وسلم بأن بنى إسرائيل كانوا يسمون بأسماء الصالحين قبلهم^(٢).

٢- وكما سألوا: كيف يمشى الإنسان يوم الحشر على وجهه؟ فقال: " إن الذى أمشاه فى الدنيا على رجله لقادر على أن يمشيه على وجهه"^(٣).

٣- وكما سألوا ابن عباس رضى الله عنهما عن وجه التطبيق بين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٤) وبين آية أخرى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٥) فقال رضى الله عنه: عدم التساؤل يوم الحشر، والتساؤل بعد دخول الجنة^(٦).

٤- وكما سألوا عائشة رضى الله عنها، فقالوا: إن كان السعى بين الصفا والمروة واجبا، فلما ذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ الآية^(٧)؟ فأجابت رضى الله عنها: بأن قوما كانوا يتجنبونه ويتخرجون منه،

(١) سورة مريم ٢٨ (٢) رواه الترمذى (٢: ١٤٤) فى أبواب التفسير، فى تفسير سورة مريم (٣) رواه الشيخان ، مشكوة ح ٥٥٣٧ (٤) سورة المؤمنون ١٠١ (٥) سورة الصافات ٢٧ (٦) أخرجه الحاكم وابن جرير كما فى الدر المنثور (٥: ١٥) (٧) سورة البقرة ١٥٨.

فلذلك قال الله تعالى : ﴿لَا جُنَاحَ﴾^(١)

هـ - وكما سأل عمر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما معنى قيد ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾^(٢) ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته^(٣) ، أى أن الكرماء لا يضايقون فى الصدقة ، فكذلك لم يذكر الله سبحانه وتعالى هذا القيد للتضييق ، بل القيد إتفاقي .

وأمثلة التوجيه كثيرة ، والغرض هنا التنبيه على معناه .

يذكر أسباب النزول وتوجيه المشكل

فى فتح الخبير لفائدتين

وأرى من المناسب أن أذكر فى الباب الخامس ما نقل البخارى والترمذى والحاكم فى تفاسيرهم من أسباب النزول وتوجيه المشكل ، بسند جيد إلى الصحابة رضى الله عنهم ، أو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع التنقيح والاختصار لفائدتين :

الأولى : أن استحضار هذا القدر من الآثار لا بد منه للمفسر ، كما لا بد له من حفظ القدر الذى ذكرناه فى ذلك الباب من شرح غريب القرآن .
والثانية : أن يُعلم أنه لا دخل لأكثر ما يروى من أسباب النزول فى فهم معانى الآيات الكريمة ، اللهم إلا شئ قليل من القصص التى ذكرت فى هذه التفاسير الثلاثة التى هى أصح التفاسير عند المحدثين .

إفراط ابن إسحاق والواقدي والكلبى

وأما إفراط محمد بن إسحاق^(١) والواقدي^(٢) والكلبى^(٣) وما ذكروا تحت

(١) رواه مسلم (فتح الملهم ٣ : ٣٢٤) (٢) سورة النساء ١٠١ (٣) رواه مسلم (فتح الملهم ٢ : ٢٥٠) (٤) هو محمد بن إسحاق المظلى المدنى : من أقدم مؤرخى العرب ، توفى سنة ١٥١ هـ (٥) هو محمد بن عمر الواقدي المدنى : من أقدم مؤرخى الإسلام وأشهرهم ، ولد سنة ١٣٠ هـ وتوفى ببغداد سنة ٢٠٧ هـ (٦) هو محمد بن السائب الكلبى : ثقاته ، رواية ، عالم بالفسير والأخبار ، أيام العرب ، توفى بالكوفة سنة ١٤٦ هـ .

كل آية من قصة، فأكثره غير صحيح عند المحدثين، وفي إسناده نظر^(١)؛ ومن الخطأ البين: أن يُعد ذلك من شروط التفسير؛ ومن يرى أن تدبر كتاب الله يتوقف على الإحاطة بها، فقد فات حظه من كتاب الله، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

الفصل الرابع فى

بقية مباحث هذا الباب

مما يوجب الخفاء: حذف بعض الأجزاء، أو أدوات الكلام، وإبدال شيء بشيء، وتقديم ماحقه التأخير، وتأخير ماحقه التقديم، واستعمال المتشابهات والتعريضات والكنيات، لاسيما تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة التى تكون من لوازم ذلك المعنى عادة^(٢) واستعمال الاستعارة المكنية، والمجاز العقلى: فلنذكر شيئا من الأمثلة لهذه الأشياء باختصار، لتكون على بصيرة

بيان الحذف

أما الحذف فعلى أقسام: حذف المضاف والموصوف والمتعلق وغير ذلك، مثل:

- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾^(٣) أى برٌّ من آمن.
- وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً﴾^(٤) أى آية مبصرة، لأنها مبصرة، غير عمياء.
- وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرِنُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾^(٥) أى حب العجل.

(١) الضمير فى قوله "أكثره" وكذا فى: "إسناده" يرجعان إلى كلمة "ما" فى قوله "ما ذكروا" (٢) وهذا أيضا من باب الكنيات. (٣) البقرة ١١٧ وفيه حذف المضاف (٤) سورة بنى إسرائيل ٥٩ وفيه حذف الموصوف (٥) سورة البقرة ٩٣ وفيه حذف المضاف.

- وقوله تعالى: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾^(١) أى بغير قتل نفس.
- وقوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَادٍ﴾^(٢) أى بغير فساد.
- وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) أى من فى السماوات ومن فى الارض ؛ لا أن شينا واحدا هو فى السماوات والارض.
- وقوله تعالى: ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾^(٤) أى ضعف عذاب الحياة و ضعف عذاب الممات.
- وقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾^(٥) أى أهل القرية.
- وقوله تعالى: ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾^(٦) أى فعلوا مكان شكر نعمة الله كفرا.
- وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي لِئَنى هِىَ أَقْوَمُ﴾^(٧) أى للخصلة التى هى أقوم.
- وقوله تعالى: ﴿بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾^(٨) أى بالخصلة التى هى أحسن.
- وقوله تعالى: ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾^(٩) أى الكلمة الحسنى والعِدة الحسنى^(١٠)
- وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾^(١١) أى على عهد ملك سليمان.
- وقوله تعالى: ﴿وَعَدْنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾^(١٢) أى على السنة رسلك.
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١٣) أى أنزلنا القرآن، وإن لم يسبق له ذكر.

(١) سورة الكهف ٧٤ وفيه حذف المضاف (٢) سورة المائدة ٣٢ وفيه حذف المضاف ، وهو الجار والمجرور (٣) جاء فى التنزيل فى تسعة مواضع ، كما فى سورة الرحمن ٢٩ وفيه حذف الموصول . (٤) سورة بنى إسرائيل ٧٥ وفيه حذف المضاف (٥) سورة يوسف ٨٢ وفيه حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه (٦) سورة إبراهيم ٢٨ وفيه حذف المضاف والمضاف إليه معا (٧) سورة بنى إسرائيل ٩ وفيه حذف الموصوف (٨) سورة فصلت ٣٤ وفيه حذف الموصوف (٩) سورة الأنبياء ١٠١ وفيه حذف الموصوف (١٠) العدة مصدر وعَدَ (١١) سورة البقرة ١٠٢ وفيه حذف المضاف الأول . (١٢) سورة آل عمران ١٩٤ وفيه أيضا حذف المضاف الأول . (١٣) سورة القدر ١ وفيه حذف مرجع الضمير .

- وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾^(١) أى توارت الشمس.
- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾^(٢) أى خصلة الصبر.
- وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾^(٣) — فيمن قرأ بالنصب — أى جعل منهم من عبد الطاغوت.
- وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾^(٤) أى جعل له نسبا وصهرا.
- وقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾^(٥) أى من قومه.
- وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾^(٦) أى كفروا نعمة ربهم، أو: كفروا بربهم، بنزع الخافض.
- وقوله تعالى: ﴿تَفْتَوُا﴾^(٧) أى لا تفتؤ، ومعناه: لا تزال.
- وقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾^(٨) أى يقولون: ما نعبدهم.
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾^(٩) أى الذين اتخذوا العجل إلها.
- وقوله تعالى: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾^(١٠) أى وعن الشمال.
- وقوله تعالى: ﴿فَطَلَّتُمْ تَفْكُهُونَ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾^(١١) أى تقولون: إنا لمغرمون.
- وقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً﴾^(١٢) أى بدلا منكم.
- وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾^(١٣) أى امض.

(١) سورة ص ٣٢ وفيه حذف مرجع الضمير. (٢) سورة لُصَلَّتْ ٣٥ وفيه حذف مرجع الضمير (٣) سورة المائدة ٦٠ وفيه حذف الموصول (٤) سورة الفرقان ٥٤ وفيه حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور (٥) سورة الأعراف ١٥٥ وفيه أيضا حذف الجار ، ثم الإيصال. (٦) سورة هود ٦٠ وفيه إما حذف المضاف الأول ، وإما حذف الجار ، ثم الإيصال (٧) سورة يوسف ٨٥ وفيه حذف الحرف (٨) سورة الزمر ٣ وفيه حذف القول (٩) سورة الأعراف ١٥٢ وفيه حذف المفعول الثاني. (١٠) سورة الصافات ٢٨ وفيه حذف بعض أجزاء الجملة (١١) سورة الواقعة ٦٥ و ٦٦ وفيه حذف القول (١٢) سورة الزخرف ٦٠ وفيه حذف المضاف (١٣) سورة الأنفال ٥ وفيه حذف الفعل.

حذف خبر إنَّ والجزاء والمفعول

والمبتدأ وما شابهها مَطْرَدٌ .

وليُعلم أن حذف خبر "إنَّ" أو حذف جزاء الشرط، أو مفعول الفعل، أو مبتدأ الجملة، وما أشبه ذلك مَطْرَدٌ^(١) في القرآن الكريم إذا كان فيما بعده دلالة على حذفه، نحو:

• قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢) أى لو شاء هدايتكم لهذاكم.

• وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٣) أى هذا الحق من ربك.

• وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا﴾^(٤) أى لا يستوى من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق من بعد الفتح. فحذف الثانى لدلالة قوله: ﴿أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ﴾^(٥).

• وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾^(٦) أى إذا قيل لهم: اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا.

لا حاجة إلى تفتيش العامل في كلمة "إذ"

وليُعلم أيضا: أن الأصل في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾^(٧) وقوله: ﴿وَإِذَا قَالَ مُوسَى﴾^(٨) أن تكون كلمة "إذ" ظرفا لفعل من الأفعال، ولكنها نُقلت ههنا إلى معنى التخويف والتهويل، كمثل الذى يذكر المواضع الهائلة أو (١) مطرد أى عام لاشذوذ فيه. (٢) سورة الأنعام ١٤٩ وفيه حذف المفعول (٣) سورة البقرة ١٤٧ وفيه حذف المبتدأ. (٤) سورة الحديد ١٠ وفيه حذف بعض أجزاء الجملة؛ والآية بتمامها: "وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا، وَكُلًّا وَغَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (٥) سورة يس ٤٥ و٤٦ وفيه حذف جزاء الشرط (٦) سورة البقرة ٣٠ (٧) سورة البقرة ٥٤.

الوقائع العظيمة على سبيل التعداد، من دون تركيب للجمل، ومن غير وقوع الكلمات في حيز الإعراب؛ بل المقصود ذكرها بأعينها، حتى ترسم صورتها في ذهن المخاطب، ويستولي الخوف منها على قلبه .
فالتحقيق : أنه لا يلزم في أمثال هذه المواضع تفتيش العامل، والله أعلم.

حذف الجار من "أَنَّ" مُطَرَّد

وليعلم أيضًا: أن حذف الجار من "أَنَّ" المصدرية مطرَّد في كلام العرب، والمعنى : لأن ، أو : بأن .

حذف جواب "لو" الشرطية

وليعلم أيضًا : أن الأصل في مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ ﴾ أن يكون جواب الشرط محذوفًا، إلا أنهم نقلوا هذا التركيب إلى معنى التعجب، فلاحاجة إلى تفتيش المحذوف والله أعلم.

بيان الإبدال

أما الإبدال فإنه تصرف كثير الفنون

إبدال فعل بفعل :

قد يذكر سبحانه وتعالى فعلا مكان فعل، لأغراض شتى ، وليس استقصاء تلك الأغراض من وظيفة هذا الكتاب، نحو :
• قوله تعالى : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾^(١) أى يسبُّ آلِهَتكم؛ وكان أصل الكلام : أهذا الذى يسب، ولكن كره ذكر السب، فأبدل بالذكر.
ومن هذا القبيل ما يقال في العرف^(٢) : "أصيب أعداء فلان بمرض" أو :

(١) سورة الأنعام ٩٣ (٢) سورة البقرة ١٦٥ (٣) سورة الأنبياء ٣٦ (٤) عند مخاطبتهم سادتهم أو مكرميهم أى ينسبون الأمر إلى ما يلا نسبهم أو إلى متعلقيهم.

”شَرَفْنَا بِالْمَجِيِّ عبيدُ الحضرة“ أو: ”عبيد الجنب العالى مطلعون على هذه المقدمة“^(١)؛ والمراد: قد مرض فلان، وقدم سعادة فلان واطلع سُمُو فلان.

• وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ مِّنَا يُصْحَبُونَ﴾^(٢) أى منا لا ينصرون ؛ لما كانت النصرة لا تتصور بدون الاجتماع والصحبة أبدل ينصرون بيصحبون .

• وقوله تعالى: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) أى خفيت ؛ لأن الشي إذا خفى علمه ثقل على أهل السماوات والأرض .

• وقوله تعالى: ﴿إِن طِبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾^(٤) أى عفون لكم عن شي من طيبة أنفسهن .

إبدال اسم باسم

وقد يذكر سبحانه وتعالى اسما مكان اسم، نحو:

• قوله تعالى: ﴿فَطَلْتُ أَعْنَأُهُمْ لَهَا خَاصِعِينَ﴾^(٥) أى خاضعة.

• وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾^(٦) أى من القانتات .

• وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾^(٧) أى من ناصر .

• وقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^(٨) أى حاجزاً .

• وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(٩) أى أفراد بنى آدم؛ أفرد اللفظ لأنه اسم جنس .

• وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾^(١٠) المعنى: ”يابنى آدم إنكم“؛ أفرد اللفظ لأنه اسم جنس .

• وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾^(١١) يعنى أفراد الإنسان .

(١) هذه كلها تعبيرات فارسية، كانوا يتكلمون بها أربمثلها عند سادتهم وكبرائهم .

(٢) سورة الأنبياء ٤٣ (٣) سورة الأعراف ١٨٧ . (٤) سورة النساء ٤ (٥) سورة الشعراء ٤ (٦) سورة التحريم ١٢ (٧) سورة آل عمران ٢٢ (٨) سورة الحاقة ٤٧ (٩) سورة العصر ١ و ٢ (١٠) سورة الانشقاق ٦ (١١) سورة الأحزاب ٧٢ .

- وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) أى نوحًا وحده.
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾^(٢) أى إني فتحت لك.
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾^(٣) أى إني لقادر.
- وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ﴾^(٤) أى يسلط محمدًا صلى الله عليه وسلم.
- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾^(٥) أى عروة الثقفى وحده.
- وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾^(٦) أى طعم الجوع؛ أبدل الطعم باللباس إيذانًا بأن الجوع له أثر من التحول والذبول ما يعم البدن كله ويشمله كاللباس.
- وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾^(٧) أى دين الله؛ أبدل بالصبغة إيذانًا بأنه كالصبغ تتلون به النفس؛ أو مشاكلة بقول النصارى فى المعمودية^(٨).
- وقوله تعالى: ﴿وَطُورٍ سَيْنِينَ﴾^(٩) أى طور سيناء.
- وقوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْلِيسَ﴾^(١٠) أى على إلباس؛ قلب الاسمان للازدواج.

إبدال حرف بحرف

- وقد يذكر سبحانه وتعالى حرفًا مكان حرف، نحو:
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾^(١١) أى على الجبل، كما تجلى فى المرة الأولى على الشجرة.
- وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(١٢) أى إليها سابقون.

(١) سورة الشعراء ١٠٥ (٢) سورة الفتح ١ (٣) سورة المعارج ٤٠ (٤) سورة الحشر ٦
 (٥) سورة آل عمران ١٧٣ (٦) سورة النحل ١١٢ (٧) سورة البقرة ١٣٨ (٨) كان
 النصارى يصبغون أولادهم بماء أصفر، يسمونه المعمودية، يزعمون أنه الماء الذى وُلد
 فيه عيسى عليه السلام، ويعتقدون أنه تطهير للمولود؛ واللفظ سريانى الأصل، أو مؤلف
 مأخوذ من العمد بمعنى الليل، (٩) سورة التين ٢ (١٠) سورة الصافات ١٣٠ والازدواج
 من ازدواج الكلام: أشبه بعضه بعضًا فى الشجع أو الوزن (١١) سورة الأعراف ١٤٣
 (١٢) سورة المؤمنون ٦١.

• وقوله تعالى: ﴿لَا يَخَافُ الَّذِي الْمُرْسَلُونَ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾^(١) أى لكن من ظلم؛ فهو استئناف.

• وقوله تعالى: ﴿لَا ضَلَابَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾^(٢) أى على جذوع النخل.

• وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ﴾^(٣) أى يستمعون عليه.

• وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾^(٤) أى منفطر فيه.

• وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾^(٥) أى عنه.

• وقوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(٦) أى حملته العرة على الإثم.

• وقوله تعالى: ﴿فَسَنَلِيهِ خَيْرًا﴾^(٧) أى فاسأل عنه.

• وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾^(٨) أى مع أموالكم.

• وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٩) أى مع المرافق.

• وقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(١٠) أى يشرب منها.

• وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا: مَا نُنْزِلُ اللَّهَ عَلَى نَبِيِّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١١) أى أن قالوا.

إبدال جملة بجملة

وقد يورد جملة مكان جملة، مثلاً: إذا دلت جملة على حاصل مضمون

جملة أخرى، وسبب وجودها، فتبدل بتلك الجملة؛ نحو:

• قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾^(١٢) أى إن تخالطوهم فلا بأس

بذلك، لأنهم إخوانكم؛ وشأن الأخ أن يخالط أخاه.

• وقوله تعالى: ﴿لَمْثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾^(١٣) أى لو وجدوا ثواباً؛ ومثوبة من

عند الله خير.

-
- (١) سورة النمل ١٠ و ١١ (٢) سورة طه ٧١ (٣) سورة الطور ٣٨ (٤) سورة المزمل ١٨ (٥) سورة المؤمنون ٦٧ (٦) سورة البقرة ٢٠٦ (٧) سورة الفرقان ٥٩ (٨) سورة النساء ٢ (٩) سورة المائدة ٦ (١٠) سورة الدهر ٦ (١١) سورة الأنعام ٩١ (١٢) سورة البقرة ٢٢٠ (١٣) سورة البقرة ١٠٣ وتمامها: "وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ"

• وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾^(١) أى إن سرق فلا عجب، لأنه قد سرق أخ له من قبل.

• وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ، فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢) أى من كان عدوا لجبريل فإن الله عدوله، فإنه نزل على قلبك بإذنه؛ فعدوه يستحق أن يعاديه الله تعالى؛ فحذف: "فإن الله عدو له" بدليل الآية التالية، وأبدل منه: ﴿فإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

إبدال التنكير بالتعريف

وقد يقتضى أصل الكلام التنكير، فيتصرف فيه بإدخال اللام والإضافة، ويبقى المعنى على التنكير الأول، نحو:

• قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا رَبُّ﴾^(٣) أى قيل له: يارب، فأبدل بقيله، لأنه أخصر فى اللفظ.

• وقوله تعالى: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾^(٤) أى حق يقين؛ أضيف ليكون أسرفى اللفظ.

إبدال التذكير والتأنيث والإفراد بأضدادها

وقد يقتضى سَنَنُ الكلام الطبيعى تذكير الضمير، أو تأنيثه، أو إفراده، فيخرجه سبحانه وتعالى عن ذلك السنن الطبيعى، ويذكر المؤنث مقام المذكر، وبالعكس، ويأتى بالجمع مكان المفرد، رعاية للمعنى، نحو:

• قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً، قَالَ: هَذَا رَبِّى، هَذَا أَكْبَرُ﴾^(٥).

• وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٦).

(١) سورة يوسف ٧٧. (٢) سورة البقرة ٩٧. (٣) سورة الزخرف ٨٨ بالجر معطوف على "الساعة" أى عنده تعالى علم الساعة، وعلم قول الرسول عليه السلام: يارب! إن هؤلاء قوم لا يؤمنون. والقول والقليل والقال والمقالة كلها مصادر بمعنى واحد (جمل) (٤) سورة الواقعة ٩٥ وفيه إضافة الموصوف إلى صفته أى حق الخبر اليقين (برحق خبر) (٥) سورة الأنعام ٧٨ وهذا مثال لذكر المذكر مقام المؤنث. (٦) سورة المؤمنون ٢٨ وهذا مثال لذكر الجمع مكان المفرد.

• وقوله تعالى: ﴿مَنْ لَهُمْ كَمَلٌ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾^(١)

إبدال التثنية بالمفرد

وقد يورد المفرد مكان التثنية، نحو:

• قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

• وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَأَتَالِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾^(٣) والأصل: "فعميتا" فافرد، لأنهما كشىء واحد؛ ومثله: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ^(٤).

إبدال الشرط والجزاء وجواب القسم بجملة مستقلة

وقد تقتضى طبيعة الكلام أن يذكر الجزاء فى صورة الجزاء، والشرط فى صورة الشرط، وجواب القسم فى صورة جواب القسم، فيتصرف سبحانه وتعالى فى الكلام، ويجعل ذلك الجزء من الكلام جملة مستقلة مستأنفة، لتنظم^(٥) بالمعنى، ويقيم شيئاً يدل عليه بوجه من الوجوه، نحو:

• قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا، يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾^(٦) المعنى: البعث والحشر حق يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾.

• وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ، قَبْلَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ﴾^(٧) المعنى: المجازاة على الأعمال حق.

• وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ، وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَخُقَّتْ، وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ،

(١) سورة البقرة ١٧ أفرد الضمير فى "استوقد" مراعاة للفظ الموصول، وجمع فى قوله: "بنورهم" مراعاة لمعنى "الذى" (٢) سورة التوبة ٧٤ أفرد الضمير، لأن الفضل هنا بمعنى الرزق، وهو لا يكون إلا من الله تعالى. (٣) سورة هود ٢٨ (٤) والأصل: أعلمان؛ وأفرد لأن علم الرسول هو ما علمه الله تعالى إيَّاه، فهما كشىء واحد. (٥) انتظم الشيء: تألف واتسق (٦) سورة النازعات ١-٦ (٧) سورة البروج ١-٤.

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ، وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ، يَأْيَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴿١﴾
 المعنى: الحساب والجزاء كائن.

إبدال الخطاب بالغيبة

وقد يقلّب الله تعالى أسلوب الكلام ، بأن يقتضى الأسلوب الخطاب
 فيأتى بالغائب، نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ
 طَيِّبَةٍ﴾ (٢).

إبدال الإخبار بالإنشاء وبالعكس

وقد يذكر سبحانه وتعالى الإنشاء مكان الإخبار، والإخبار مكان
 الإنشاء، نحو:

• قوله تعالى: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ (٣) أى لتمشوا.

• وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤) أى إيمانكم يقتضى هذا.

• وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥) المعنى: على قياس
 حال ابن آدم كتبنا، أو: على مثال حال ابن آدم؛ فأبدل منه: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ﴾
 لأن القياس لا يكون إلا بملاحظة العلة؛ فكان القياس نوع من التعليل.

• وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ (٦) هو فى الأصل بمعنى الاستفهام، من الرؤية، ولكن
 نقل هنا ليكون تنبيها على استماع الكلام الآتى بعده كما يقال فى العرف:
 ترى شيئا؟ تسمع شيئا؟

التقديم والتأخير والتعلق بالبعيد وما شابههما

وقد يوجب التقديم والتأخير أيضًا صعوبةً فى فهم المراد، كما فى الشعر

(١) سورة الانشقاق ١-٦ (٢) سورة يونس ٢٢ والأصل: "بكم" (٣) سورة الملك
 ١٥ وامتواصيغة أمر وتمشوا فعل مضارع فأبدل الإخبار بالإنشاء (٤) سورة البقرة
 ٩٣ (٥) سورة المائدة ٣٢ (٦) فى غير موضع كما فى أول سورة الماعون.

المشهور:

- بُيِّنَتْ شَأْنُهَا سَلِبَتْ فَوَادَى بِلَا جَرَمَ أَتَيْتُ بِهِ سَلَامًا^(١)
والتعلق بالبعيد أيضًا مما يوجب الصعوبة في الكلام، وكذلك ما يكون
من هذا القبيل، نحو:
• قوله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ، إِنَّا لَمُنَجُّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا أَمْرَآتَهُ﴾^(٢) أدخل الاستثناء
على الاستثناء فصعب.
• وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ﴾^(٣) متصل بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾
• وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾^(٤) أى يدعو من ضره.
• وقوله تعالى: ﴿لَتَتَوَّأَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾^(٥) أى لتتوَّأ العصابة بها.
• وقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بَرءً وَسِكِّمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾^(٦) أى اغسلوا أرجلكم.
• وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾^(٧) أى
ولولا كلمة سبقت وأجل مسمى لكان لزَامًا.
• وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً﴾^(٨) متصل بقوله: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾.
• وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٩) متصل بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
فِي إِبْرَاهِيمَ﴾
• وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾^(١٠) أى يسئلونك عنها كأنك خفي،

الزيادة في الكلام

والزيادة على السنن الطبيعي أيضًا على أقسام:

- (١) أى سلبت بشينة فَوَادَى ، بلا جرم أتيت به، شأنها سلاما. (٢) سورة الحجر ٥٩ و ٦٠
(٣) سورة التين ٧ (٤) سورة الحج ١٣ واللام فيه زائدة. (٥) سورة القصص ٢٦ (٦)
سورة المائدة ٦ (٧) سورة طه ١٢٩ وهذا مثال التقديم والتأخير. (٨) سورة الأنفال
٧٣ (٩) سورة الممتحنة ٤ (١٠) سورة الأعراف. ١٨٧ وفيه أيضًا تقديم وتأخير.

الزيادة بالصفة:

قد تكون الزيادة فى الكلام بالصفة، نحو:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾^(١).
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^(٢).

الزيادة بالإبدال

وقد تكون بالإبدال، نحو قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلْمَنَ آمَنَ مِنْهُمْ﴾^(٣)

الزيادة بالعطف التفسيرى

وقد تكون بالعطف التفسيرى، نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾^(٤)

الزيادة بالتكرار

وقد تكون بالتكرار، نحو:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾^(٥) أصل الكلام: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن.
- وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ — وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا — فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(٦)
- وقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٧).

• وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ؟ قُلْ: هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(٨) أى هى مواقيت للناس باعتبار أن الله تعالى شرع لهم التوقيت بها، وللحج

(١) سورة الأنعام ٣٨. (٢) سورة السجدة ١٩ - ٢١ (٣) سورة الأعراف ٧٥ (٤) سورة الأحقاف ١٥ (٥) سورة يونس ٦٦ (٦) سورة البقرة ٨٩ (٧) سورة النساء ٩ (٨) سورة البقرة ١٨٩.

باعتبار أن التوقيت بها حاصل للحج، ولوقيل: "هي مواقيت للناس في حجاجهم" لكان أخصر؛ ولكن اطنب.

• وقوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾^(١) أى تنذر أم القرى يوم الجمعة.

• وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾^(٢) أى ترى الجبال جامدة؛ ادخل "الحسبان" لأن "الرؤية" تجيء لمعان، والمراد بها ههنا معنى "الحسبان".

• وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ — وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ — فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣) ادخل: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ فى تضاعيف الكلام المنتظم بعضه ببعض بيانا لضمير: "اختلفوا" وأيدانا بأن المراد من "الاختلاف" ههنا: هو الاختلاف الواقع فى أمة الدعوة بعد نزول الكتاب: بأن آمن بعض وكفر بعض.

زيادة حرف الجر

وقد يزيد سبحانه وتعالى حرف الجر على الفاعل، أو المفعول به، ويجعله معمولا للفعل بواسطة حرف الجر، لتأكيد الاتصال، نحو:

• قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا﴾^(٤) أى تُحمى هى.

• وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^(٥) أى قفينا هم بعيسى

ابن مريم.

(١) سورة الشورى ٧ (٢) سورة النمل ٨٨ (٣) سورة البقرة ١٣٢ (٤) سورة التوبة ٣٥ (٥) سورة المائدة ٤٦.

واو الاتصال

وينبغي أن يُعلم هنا نكتة، وهي أن " الواو " تستعمل فى مواضع كثيرة لتوكيد الاتصال، لا للعطف، نحو:

- قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾^(١)
- وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾^(٢).
- وقوله تعالى: ﴿وَلِيَمْحُصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٣).

فاء الاتصال

وكذلك تزداد " الفاء " أيضا، قال القسطلانى فى شرح كتاب الحج ، فى باب المعتمر إذا طاف طواف العمرة ثم خرج، هل يجزيه من طواف الوداع؟ " ويجوز توسط العاطف بين الصفة والموصوف لتأكيد لصوقها بالموصوف، نحو: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾^(٤) قال سيويه: هو مثل: " مررت بزيد وصاحبك " إذا أردت بصاحبك زيدا.

وقال الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾^(٥) جملة واقعة صفة لقريّة؛ والقياس أن لا توسط الواو بينهما، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾^(٦) وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال فى الحال: جاء نى زيد عليه ثوب، وجاء نى زيد وعليه ثوب (انتهى)^(٧)

انتشار الضمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة

وربما تكون الصعوبة فى فهم المراد لانتشار الضمائر، وإرادة المعنيين من كلمة واحدة، نحو:

(١) سورة الواقعة ١-٧ (٢) سورة الزمر ٧٣ (٣) سورة آل عمران ١٤١. (٤) سورة الأنفال ٤٩. (٥) سورة الحجر ٤ (٦) سورة الشعراء ٢٠٨ (٧) أى انتهى كلام الزمخشري .
٠ نه انتهى النقل من القسطلانى. (٣: ٣٢٩)

● قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(١)
 يعنى أن الشياطين ليصدون الناس عن السبيل، ويحسب الناس أنهم مهتدون.
 ● وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾^(٢) المراد به الشيطان فى موضع واحد، وفى
 الموضع الآخر الملك.

● وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ: مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾^(٣) وقوله
 تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ: الْعَفْوَ﴾^(٤) فالأول معناه: أى إنفاق
 ينفقون؟ وأى نوع من الإنفاق ينفقون؟ وهو صادق بالسؤال عن المصروف،
 لأن الإنفاق يصير باعتبار المصارف أنواعاً: والثانى معناه: أى مال ينفقون؟
 ومن هذا القبيل^(٥): محيء لفظ "جعل" و"شئ" ونحوهما لمعان شئى:
 ● قديجيء "جعل" بمعنى خلق، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٦)
 ● وقد يكون بمعنى اعتقد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾^(٧)
 ويحيى "شئ" مكان الفاعل، والمفعول به والمفعول المطلق وغيرها، نحو:
 ● قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾^(٨) أى من غير خالق.
 ● وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾^(٩) أى عن شئ مما تتوقف
 فيه من أمرى.

وقد يريد بالأمر والنبا والخطب المخبر عنه، نحو:

● قوله تعالى: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾^(١٠) أى قصة عجيبة.

وكذلك: كلمتا الخير والشر وما فى معناهما يختلف المراد منهما
 حسب اختلاف المواضع.

ومن هذا القبيل^(١١): انتشار الآيات: قد يُبادر إلى آية مقامها الأصلي بعد

(١) سورة الزخرف ٣٧ (٢) فى سورة ق فى موضعين فى آية ٢٣ و ٢٧ (٣) سورة البقرة
 ٢١٥ (٤) سورة البقرة ٢١٩. (٥) أى من قبيل أرادة المعنيين من كلمة واحدة (٦) سورة
 الأنعام ١ (٧) سورة الأنعام ١٣٦ (٨) سورة الطور ٣٥ (٩) سورة الكهف ٧٠ (١٠) سورة
 ص ٦٧ (١١) أى من قبيل انتشار الضمان

إيراد القصة، فيذكرها قبل تمام القصة، ثم يعود إلى القصة فيتمها^(١) وقد تكون الآية: متقدمة في النزول، متأخرة في التلاوة نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾^(٢) مقدمة في النزول وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾^(٣) متأخرة؛ وفي التلاوة بالعكس. وقد يُدرج الجواب في تضاعيف أقوال الكفار، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ - قُلْ: إِنَّ الْهُدَى هَدَى اللَّهُ - أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾^(٤) وبالجملية: فهذه المباحث تحتاج إلى تفصيل كثير، وفيما ذكرناه كفاية؛ ومن قرأ القرآن الكريم من أهل السعادة، واستحضر هذه الأمور عند تلاوته؛ أدرك بآدنى تأمل غرض الكلام ومغزاه، ويقيس غير المذكور على المذكور، وينتقل من مثال إلى أمثلة أخرى.

الفصل الخامس في

بيان المحكم، والمتشابه والكناية والتعريض والمجاز العقلي

المحكم

ليعلم أن المحكم هو ما لا يدرك العارف باللغة من ذلك الكلام إلا معنى واحداً؛ والمعتبر فهم العرب الأولين، لا فهم مدققى زماننا الذين يشقون الشعرة، فإن التدقيق الفارغ داء عضال يجعل المحكم متشابهاً، والمعلوم مجهولاً.

المتشابه

والمتشابه هو ما يحتمل معنيين:

(١) كما في سورة الحجر ٦٠ (٢) سورة البقرة ١٤٣ (٣) سورة البقرة ١٤٢ (٤) سورة آل عمران ٧٣

• لاحتتمال رجوع الضمير إلى المرجعين، كما قال رجل: "أَمَا إِنْ الْأَمِيرَ أَمَرَنِي أَنْ أَلْعَنَ فُلَانًا، لَعَنَهُ اللَّهُ!"

• أو لاشتراك الكلمة في معنيين، نحو قوله تعالى ﴿لَا مَسْئَةَ﴾^(١) في الجماع واللمس باليد.

• أو لاحتتمال العطف على القريب والبعيد، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾^(٢) في قراءة الكسر.

• أو لاحتتمال العطف والاستيفاء، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(٣).

الكناية:

والكناية هي أن يُثَبِّتَ حكما من الأحكام، ولا يقصد به ثبوت ذلك الأمر بعينه، بل يقصد أن ينتقل ذهن المخاطب إلى لازمه بلزوم عادى أو عقلى، كما يفهم معنى كثرة الضيافة من قولهم: "عظيم الرماد" ويفهم معنى السخاوة من قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٤).

تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة:

وتصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة من هذا القبيل^(٥)؛ وذلك باب واسع في أشعار العرب وخُطَبِهِم؛ والقرآن العظيم وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم مشحون به، نحو:

• قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾^(٦): شبه الشيطان برئيس قُطَاع الطريق، حيث ينادى أصحابه، فيقول: "تعال من هذه الجهة" و"ادخل من تلك الجهة".

(١) سورة النساء ٤٣ وسورة المائدة ٦ (٢) سورة المائدة ٦ وأما في قراءة النصب فيتعين العطف على البعيد. (٣) سورة آل عمران ٧. (٤) سورة المائدة ٦٤ (٥) أى من قبيل الكناية (٦) سورة الإسراء ٦٤ (٧) سورة يس ٩.

• وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾^(١)؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾^(٢) شبه إعراضهم عن تدبر الآيات بمن غُلَّت يده، أو بُنى حواليه سد من كل جهة فلم يستطع النظر أصلاً.

• وقوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾^(٣) يعنى اجمع خاطرك، ودع الاضطراب وقلق البال.

ونظير ذلك^(٤) فى العرف:

• أنه إذا أراد أحد أن يبين شجاعة رجل يشير بالسيف أنه يضرب إلى هذه الجهة، ويضرب إلى تلك الجهة، وليس مقصوده إلا بيان غلبته أهل الآفاق بصفة الشجاعة، ولولم يأخذ السيف بيده مرة من الدهر.

• أو يقولون: فلان يقول: "لا أرى أحداً أعنى وجه الأرض يبارزنى"؛ أو يقولون: "فلان يفعل كذا وكذا" ويشيرون بهينه أهل المبارزة وقت مغالبة الخصم؛ ولولم يصدر عنه هذا القول قط، ولم يفعل هذا الفعل أصلاً.

• أو يقولون: "فلان خنقنى ونزع اللقمة من فمى"^(٥)

التعريض

والتعريض أن يذكر الله تعالى حكماً عاماً أو منكرًا، ويكون الغرض منه الإيماء إلى حال رجل خاص، أو التنبيه على حال رجل معين، ويأتى فى غُضُون^(٦) الكلام بعض خصوصيات ذلك الرجل التى يعرف المخاطب عليه، فيغرق القارئ فى الفكر فى مثل هذا الموضع، ويحتاج إلى تلك القصة؛ و كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينكر على شخص يقول: "مابال أقوام يفعلون كذا وكذا"، وكما:

(١) سورة يونس ٩٩ (٢) سورة يونس ٨٨ (٣) سورة القصص ٣٢ (٤) أى نظير تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة (٥) هذه التعبيرات وأمثال هذه كلها من قبيل تصوير المعنى المراد بالصورة المحسوسة (٦) يقال: جاء فى غُضُون كلامك كذا: فى اثنا عشر وطيّاته.

• فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ الآية^(١) تعريض لقصة زينب وأخيه.

• وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾^(٢) تعريض بأبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ففى هذه الصُّور ما لم يطلعوا على تلك القصة لايدر كون فحوى^(٣) الكلام

المجاز العقلى

والمجاز العقلى: هو أن يُسندَ الفعل إلى غير فاعله، أو يُجعل المفعول به مالىس بمفعول به فى الحقيقة ، لعلاقة المشابهة بينهما، ويدعى المتكلم أنه داخل فى عداده، وفرد من أفراده

• كما يقولون: "بنى الأمير القصر" مع أن البانى بعض البنائين.

• وكما يقولون: "أنبت الربيع البقل" مع أن المنبت هو الله سبحانه وتعالى فى فصل الربيع، والله أعلم بالصواب.

الباب الثالث

فى

بيان لطائف نظم القرآن ، وشرح أسلوبه البديع

الفصل الأول

فى

ترتيب القرآن الكريم، وأسلوب السُّور فيه

لم يُجعل القرآنُ مبوباً مفصلاً على منهج المتون، ليذكر كل مطلب منه

فى باب أو فصل، بل افترض القرآن الكريم كمجموعة المكتوبات، فكما

(١) سورة الأحزاب ٣٦. (٢) سورة النور ٢٢ (٣) فحوى القول: مضمونه ومرماه الذى يتجه إليه القائل ج لِحَارٍ وَفَحَاوَى.

يُوجَّه الملوك إلى رعاياهم حسب مقتضيات الأحوال فرمانا، وبعد زمان يكتبون فرمانا آخر، وهلم جرأ، حتى تجتمع فرامين كثيرة، فيدونها شخص ويجعلها مجموعاً مرتباً، كذلك أنزل الملك على الإطلاق جل شأنه على نبيه صلى الله عليه وسلم لهداية عباده سورة بعد سورة حسب مُتَطَلِّبات الظروف. وقد كانت كل سورة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم محفوظة مضبوطة على حدة، ثم دُوِّنَت السور كلها في مجلد واحد بترتيب خاص في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وسمى هذا المجموع بالمُصحف.

تقسيم السور

وقد كانت السور مقسومة عند الصحابة رضي الله عنهم إلى أربعة أقسام:
القسم الأول: السبع الطول التي هي أطول السور.
والقسم الثاني: المئون: وهي التي تشتمل كل واحدة منها على مائة آية، أو تزيد قليلاً.

والقسم الثالث: المئاني: وهي ما تقلُّ آياتها عن المائة.

والقسم الرابع: المفصل

وقد أدخلت سورتان أو ثلاث هي من عداد المئاني في المئين، لمناسبة سياقها بسياق المئين؛ وهكذا جرى التصرف في بعض الأقسام الأخرى أيضاً.

القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه

وقد استنسخ عثمان رضي الله عنه عِدَّة نُسَخ من ذلك المصحف، وأرسلها إلى الآفاق، ليستفيد المسلمون منها، ولا يميلون إلى ترتيب آخر.

استهلال السور واختتامها على أسلوب الفرامين

ولما كانت بين أسلوب السور واسلوب فرامين الملوك مناسبة تامة، رُوِيَ في البداية والنهاية طريق المكاتيب؛ فكما أنهم يتدوَّن بعضها بحمد الله تعالى، وبعضها ببيان غرض الإملاء، وبعضها ببيان اسم المرسل والمرسل

إليه؛ وبعضها تكون رُفْعَةً وَشَقَّةً بغير عنوان، وبعضها تكون طويلة، وأخرى مختصرة، كذلك استهّل الله تعالى بعض السور بالحمد والتسبيح، وبعضها ببيان غرض التنزيل، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾^(٢)

وهذا القسم من السور يشبه بما يكتبون: ^(٣) "هذا ما صالح عليه فلان وفلان" و "هذا ما أوصى به فلان" وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية: "هذا ما قاضى عليه محمد — صلى الله عليه وسلم".^(٤)

واستهّل بعضها بذكر المرسل والمرسل إليه، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَخْكَمْتُ آيَاتُهُ، ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٦).

وهذا القسم يشبه بما يكتبون: "صدر الحكم من الباب العالى" أو يكتبون: "هذا إعلام من حضرة الخلافة إلى سگان البلد الفلانى بأن الخ"؛ وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم: "من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم"^(٧) واستهّل بعضها على أسلوب الرقاع والشقق^(٨) بغير عنوان، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾^(٩) وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾^(١٠) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾^(١١).

منهج القصائد فى مبتدأ بعض السور

ولما كانت فصاحة العرب تتجلى فى القصائد، وكان من عاداتهم القديمة

(١) سورة البقرة ٢ (٢) سورة التوراة (٣) أى فى استهلال الوثائق والمعاهدات. (٤) البخارى ص ٣٧٢ (٥) سورة الجاثية ٢ (٦) سورة هود (٧) البخارى (١: ٥) (٨) الرقاع جمع الرقعة: القطعة من الورق التى تكتب فيها، (پرچه) والشقق جمع الشقة: ما شق من ثوب أو ورق مستطيلاً (کپڑے وغیرہ کی لکڑی) (٩) سورة المنافقون ١ (١٠) سورة المجادلة ١ (١١) سورة التحريم ١.

فى مبدأ القصائد التشبيب^(١) بذكر المواضع العجيبه والوقائع الهائلة، فاختار سبحانه وتعالى هذا الأسلوب فى بعض السور، كما قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَّاتِ دُورًا، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾^(٤)

خواتم السور على منهج الفرامين

وكما أن الملوك يختمون فرامينهم بجوامع الكلم، ونوادير الوصايا، والتأكيد البليغ بتمسك الأوامر المذكورة، والتهديد الشديد لكل من يخالفها، كذلك ختم الله تبارك وتعالى أواخر السور بجوامع الكلم، ومنايع الحكم والتأكيد البليغ والتهديد العظيم.

تخلل الكلام البليغ فى أثناء السور

وقد يؤتى فى أثناء السور بالكلام البليغ العظيم الفائدة البديع الأسلوب، الذى يشتمل على نوع من الحمد والتسبيح، أو على نوع من النعم والامتنان، كما:

• بدأ بيان التباين بين مرتبة الخالق والمخلوق بقوله: ﴿قُلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى، اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٥) ثم بين هذا الموضوع فى خمس آيات بأبلغ وجه وأبدع أسلوب.

• وبدأ مخاطبة بنى إسرائيل فى أثناء سورة البقرة بقوله: ﴿يٰٓبَنَى إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا﴾^(٦) ثم ختمها بنفس هذا الكلام؛ فابتداء المحاجة بهذه الكلمة، وانتهاء هابها يحتل^(٧) مكانا عظيما فى البلاغة.

• وبدأ المخاطبة مع أهل الكتاب فى سورة آل عمران بقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ

(١) شُبَّ قصيدته: حُسْنُهَا وزينها بذكر النساء، والعادة أن يكون التشبيب فى مبدأ قصائد المدح، ثم سُمى ابتداء كل أمر تشبيبا، وإن لم يكن فيه ذكر الشباب والنساء (٢) سورة الصافات ٢١ و (٣) سورة الذاريات ٢١ و (٤) سورة التكويد ١ و ٢. (٥) سورة النمل ٥٩ و (٦) سورة البقرة ٤٧ و (٧) احتل مكانا: حله ونزله واحتل مكانا عظيما فى البلاغة (فصاحت من اس كاهت انم مقام هـ).

اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿١﴾ لِيُتَّضَحَ محلُّ النزاع، ويدور الجوارح^(٢) على ذلك المدعى والله أعلم بحقيقة الحال.

الفصل الثانى

فى

تقسيم السور إلى الآيات، وأسلوبها الفريد

لقد جرت سنة الله تعالى فى أكثر السور^(٣) بتقسيمها إلى الآيات، كما كانوا يقسمون القصائد إلى الأبيات.

الفرق بين الآيات والأبيات

وغاية ما يقال فى الفرق بينهما: أن كلا منهما نشائد^(٤)، التى تُنشَد لالتذاد نفس المتكلم والسامع؛ إلا أن الأبيات مقيدةٌ بالعروض والقوافى^(٥)، التى دونها الخليل بن أحمد^(٦) وتلقاها منه الشعراء، وبناء الآيات على الوزن والقافية الإجماليين، يشبهان أمراً طبعياً، لا على أفاعيل العروضيين وتفاعيلهم^(٧) وقوافيهم المعينة التى هى أمر صناعى واصطلاحى.

الأمر المشترك بين الآيات والأبيات

وأما تنقيح الأمر المشترك بين الآيات والأبيات — ونعبر ذلك الأمر

(١) سورة آل عمران ١٩ (٢) الحوار (كُتِّكُو، بات جيت) (٣) ستقف على فائدة التقييد بالأكثر فى آخر الفصل (٤) النشائد جمع النشيد والنشيدة: ما يرفع فيه الصوت مع التلحين (كأن، ترانه، شعر جس كوراگ کے ساتھ بلند آواز سے پڑھیں) وأنشد الشعر: قرأه رافعا به صوته (٥) العروض: ميزان الشعر الذى يظهر به المتزن من المختل، والقافية: آخر كلمة فى البيت، أو هى: من آخر ساكن فيه إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذى قبل الساكن، فلو قلت مثلاً: "ما أطول الليل على من لم يَنَمْ" كانت القافية "لم يَنَمْ" (٦) هو خليل بن أحمد الفراهيدى: من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيويه ولد سنة ١٠٠ هـ وتوفى سنة ١٧٠ هـ (٧) الأفاعيل والتفاعيل: أمثلة الأجزاء التى يتألف منها الشعر، وهى أربعة: مُعولن، مفاعيلن، مفاعلتن، فاعلتن، وبقية الأجزاء مأخوذة منها.

العام بالنشاند^(١) — ثم ضبط تلك الأمور التي التزم بها في الآيات — وذلك بمنزلة الفصل — فكل ذلك يحتاج إلى تفصيل ، والله ولي التوفيق .
وتفصيل هذا الإجمال : أن الفطرة السليمة تدرك بذوقها في القصائد الموزونة المقفاة ، والأراجيز الرائقة الجميلة ، وأمثالها ، حلاوةً وعذوبةً ؛ وإذا تأمل أحد في سبب إدراك تلك الحلاوة ، وجد أن نفس المخاطب تتذوق لذةً خاصة في الكلام الذي يوافق بعضه بعضاً ، ويجعلها منتظراً إلى كلام آخر مثله ، فإذا سمعت بعد ذلك البيت الآخر مع ذلك التوافق والانسجام بين أجزائه ، وتحقق الأمر المنتظر ، تضاعفت اللذة عند ذلك ؛ ولما كان البيتان مشتركين في قافية واحدة ، ازدادت اللذة ثلاثة أضعافها ؛ فالتمتع والالتذاذ بالأبيات بهذا السر فطرة قديمة فطر الناس عليها ، وأصحاب الأمزجة السليمة من أهل الأقاليم المعتدلة متفقون على ذلك .

ثم حدثت بعد ذلك مذاهب مختلفة ورسوم متباينة في توافق الأجزاء^(٢) في كل بيت من الأبيات ، وكذا في شروط القوافي المشتركة بين الأبيات : فالعرب عندهم ضوابط وأصول بينها الخليل ، والهنود يتبعون قانوناً يحكم به سليقتهم اللغوية وقريحتهم^(٣) الفطرية ، وهكذا اختار أهل كل عصر وضعاً من الأوضاع^(٤) وسلكوا مسلكاً من المسالك .

التوافق التقريبي هو الأمر المشترك بين مختلف الكلام المنظوم

وإذا أردنا أن نتزع من بين هذه الرسوم والمذاهب المختلفة أمراً جامعاً مشتركاً ، وتأملنا السر المنتشر الشامل فيها ، وجدنا أنه هو التوافق التقريبي ، لا غير ، لأن العرب يستعملون مفاعيل^(٥) ومفتعلن مكان مستفععلن ، ويعتبرون

(١) وهذا بمنزلة الجنس . (٢) الأجزاء : أركان الوزن (٣) القرينة من الإنسان : طبيعته التي جبل عليها (٤) الوضع : هيئة الشيء التي يكون عليها (٥) الإعراب حكاية .

لُعْلَائُنْ بدل فاعلائُنْ وفق القاعدة، ويجعلون موافقةً ضَرْبٍ^(١) بيت بضرب بيت آخر، وموافقةً عَرُوض بيت بعروض بيت آخر، أمراً مهماً؛ ويجوزون زحافاتٍ^(٢) كثيرةً في الحشو^(٣) بخلاف شعراء الفُرس، فإن الزحافات عندهم مستهجنة^(٤).

وكذلك تستحسن العرب كون القافية في البيت "قبوراً" وفي البيت الآخر "منيراً" بخلاف شعراء العجم.

وهكذا يرى الشعراء العرب أن "حاصل" و"داخل" و"نازل" من قسم واحد، بخلاف الشعراء العجم.

وكذلك وقوع كلمة واحدة بين شطري البيت، بحيث يكون نصفها في الصدر، والنصف الآخر في العَجْز^(٥) صحيح عند العرب، لا عند العجم. وقد لكة القول: أن الأمر الجامع المشترك بين الكلام المنظوم العربي والفارسي هو التوافق التقريبي، لا التوافق التحقيقي.

وقد وضع الهنود أوزان شعرهم على عدد الحروف بدون ملاحظة الحركات والسكنات، وهي أيضاً تمنح لذة وحلاوة، وقد سمعنا بعض أهل البداوة يختارون في تغريداتهم^(٦) التي يتلذذون بها، كلاماً متوافقاً بتوافق تقريبي، أورديقاً^(٧) — تارة يكون كلمة واحدة، وأخرى يزيد عليها — وينشدونها مثل القصائد، ويتلذذون بها؛ ولكل قوم أسلوب خاص في كلامهم المنظوم.

وهكذا وقع اتفاق الأمم على الالتذاذ بالبحان ونغمات، وتحقيق اختلافهم

(١) الضرب: الجزء الأخير من المصراع الثاني من البيت، والعروض هنا هو الجزء الأخير من المصراع الأول من البيت (٢) الزحاف: تغيير يلحق لثاني السبب الخفيف أو الثقيل (٣) الحشو: أركان البحر الواقعة بين الصدر والعروض، وبين الابتداء والضرب، (٤) استهجنه: استقبحه (٥) الصدر: المصراع الأول من البيت والعَجْز: المصراع الثاني منه. (٦) غرَّد الطائر والإنسان: رفع صوته بالفناء وطرب به (٧) والرديف عند العجم: كلمة مستقلة تأتي في آخر البيت بعد القافية.

فى قوانىن تغرىدهم، وأسالىب تلحىنههم^(١)

وقد وضع اللىنانىون عدداً من الأوزان، يسمونها "المقامات" واستنبطوا منها أصواتا وشعباً، ودوّنوا لأنفسهم قنّامىسوطاً مفصلاً.

وكذلك وضع الهنود ستة نغمات، وفرّعوا منها نُقِيمات^(٢)؛ وقد رأينا أهلاً البداوة منهم الذين لا يعرفون هذين المصطلحين، تفطنوا بحسب سلىقتهم لتألىف الكلام وتلحىنه، وتغنّوا به من دون أن يضبطوا له الكلىات، ويحصّروا له الجزئىات.

وإذا حكّمنا الحُدُس^(٣) بعد هذه الملاحظات، لم نجد الأمر المشترك سوى التوافق التقرىبى؛ ولا غرض للعقل إلا بذلك المنتزع الإجمالى، ولا همّ له فى تفاصيل القوافى المردفة الموصولة^(٤)؛ ولا يحب الذوق السلىم إلا تلك الحلاوة المَحْضَة والغذوبة الخالصة، ولا علاقة له بطويل البحر ومدىده.

مراعاة القرآن الكرىم للحسن الإجمالى المشترك

ولمّا أراد الخلاق — جلّت قدرته — أن يخاطب الإنسان المخلوق من قُبْضة طىْن، نظر إلى ذلك الحسن الإجمالى والجمال المشترك فحسب، ولم ينظر إلى قوالب مستحسنة عند قوم دون قوم؛ وحنىما شاء مالك الملك أن يتكلم على منهج الآدمىين، لاحظ ذلك الأصل البسىط والسر المشترك، ولم يراع هذه القوانىن المتغىرة بتغىر الأدوار والأطوار.

ومبنى التمسك بالقوانىن الاصطلاحىة هو العَجْز والجهل؛ وتحصىلُ تلك الحسنى الإجمالى والجمال الفنى بدون توسط تلك القواعد — بحىث (١) لحن فى قرأته: طَرِبَ فىها، وغرّ دبالحان. (٢) نغمة: راك نُغِمة راكّتايا (٣) الحُدُس: سرعة الانتقال فى الفهم والاستتاج (٤) الرّوى: الحرف الذى تُبنى علىه القصيدة، والىه تُنسب، يقال: قصيدة بائىة: إذا كان روىها الباء؛ ثم الرّوى إن كان ساكناً لمقىد، والقافىة مقىدة؛ وإلا فمطلق والقافىة مطلقة؛ فإن سبقه مدّة أولىن لِرْدَف، والقافىة مُردّفة؛ وإن لِحَقَهُ مدّة أوها ساكنة: فصل لوصل، والقافىة موصولة؛ فمثال القافىة المردفة الموصولة: "ومن أين للوجه الملىح ذنوب؟" الرّدْف واو فى آخر الباء، والوصل واو قبل الباء وكذا: "وقلنا القوم إخوان" الرّدْف واو، والوصل ألف (محىط الدائرة).

لا يتغير البيان في الوهاد والأنجاد^(١) ولا يضيع الكلام في السهول والجبال — معجز ومفحم^(٢)، وأنا أنتزع من جريان الحق تعالى على ذلك السنن أصلاً، وأضع منه قاعدة:

وتلك القاعدة: أنه تعالى قدراعى في أكثر السور امتداد النفس^(٣) لا البحر الطويل والمديد؛ وكذلك اعتبر في الفواصل انقطاع النفس بالمدّة، وبما تستقر عليه المدّة، لا قواعد فن القافية.

وهذه الكلمة أيضاً تقتضى بسطاً وتفصيلاً قليلاً القارئ السمع لما يذكر بالتالى :

الامتداد النفسى الطبيعى هو الوزن فى القرآن

إعلم أن دخول النفس فى الحلقوم وخروجه منه أمر طبيعى فى الإنسان، وإن كان تمديده وتقصيره من مقدوره، ولكنه إذا ترك على سجيته فلا بد له من امتداد محدود؛ والإنسان حينما يتنفس يجد النشاط، ثم يضمحل ذلك النشاط تدريجاً، حتى ينقطع كلياً فى آخر الأمر، ويضطر إلى أخذ النفس الجديد الطازج.

وهذا الامتداد أمر محدّد بحدّ مُبهم، ومقدّر بمقدار مشترك، بحيث لا يضره نقصان كلمتين أو ثلاث، بل ولا نقصان قدر الثلث والرابع وكذلك لا يخرج عن الحد زيادة كلمتين أو ثلاث، بل ولا زيادة قدر الثلث والرابع؛

(١) الوهاد: الأرض المنخفضة، والأنجاد جمع نجد: المكان المرتفع (٢) أى أن الاحتياج إلى القوانين العرفية لعجز الإنسان وجهله، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك الحسن الإجمالى بكماله بدون توسط تلك القواعد الفنية ؛ ولكن الله تعالى قادر على كل شيء ، فلأحاجة له إلى تلك القوانين الاصطلاحية لتحصيل ذلك الجمال المشترك بين كلام طوائف الناس. (٣) النفس — بفتح الفاء — ربح يدخل ويخرج من لم الحى حالة النفس (نفس) والجمع أنفاس.

ويسع فيه اختلاف عدد الأوتاد والأسباب^(١) ويُسامح فيه بتقديم بعض الأركان على بعض^(٢)

فجعل هذا الامتداد النفسى وزناً، وقُسم على ثلاثة أقسام:

١- طويل ٢- ومتوسط ٣- وقصير

أما الطويل : فنحو سورة النساء .

وأما المتوسط : فنحو سورة الأعراف والأنعام .

وأما القصير : فنحو سورة الشعراء والدخان .

خاتمة النفس على المدة هى القافية فى القرآن

وخاتمة النفس على المدة المعتمدة على حرف، هى القافية المتسعة التى يتلذذ الطبع من إعادتها مراراً؛ ولو كانت تلك المدة فى موضع "ألفاً" وفى موضع آخر "واواً" أو "ياءً" وسواء كان ذلك الحرف الأخير فى موضع "باء" وفى موضع آخر "ميماً" أو "فافاً" ف"يعلمون" و"مؤمنين" و"مستقيم" كلها متوافقة؛ و"خروج" و"مريج" و"تحيد" و"تبار" و"فوق" و"عجاب" كلها على قاعدة.

لحوق الألف فى آخر الكلمة أيضاً قافية

وكذلك لحوق الألف فى آخر الكلمة قافية متسعة، فى إعادتها لذة، ولو كان حرف الروى^(٣) مختلفاً، فيقول فى موضع "كريماً" وفى موضع آخر "حديثاً" وفى موضع ثالث "بصيراً".

فإن التزم فى هذه الصورة موافقة الروى، كان من قبيل: "التزام ما لا يلتزم"^(٤)

(١) الوند: ثلاثة أحرف، ثانياً أو ثالثاً ساكن؛ فإن سكن وسطها كما فى "قول" فهو الوند المفروق؛ وإن تحرك وسطها، وسكن آخرها كما فى "على" فهو الوند المجموع، والسبب: حرفان، ثانيهما ساكن نحو "لَمْ" ويسمى سبباً خفيفاً؛ وإن كانا متحركين، فهو سبب ثَقِيل، نحو: "أَر" فى لم أر. (٢) الأركان: أفاعيل الغروضين وتفاعيلهم. (٣) الروى: كل حرف يقع آخر البيت، إلا ما استثنى منه من التنوين أو بدل من التنوين، أو حرف إشباعى مجلوب لبيان الحركة، وما إلى ذلك. (٤) التزام الخ كوسرلى ليا كوسرلى ضرورى نہیں تھا۔

كما وقع فى أوائل سورة مريم وسورة الفرقان.

توافق الآيات على حرف واحد وإعادة الجملة مفيداً لذة

وكذلك توافق الآيات على حرف واحد، كحرف "الميم" فى سورة القتال، و"النون" فى سورة الرحمن يفيد لذة وحلاوة.

وكذلك إعادة جملة بعد طائفة من الكلام مفيداً لذة كما وقع فى سورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة الرحمن، وسورة المرسلات.

اختلاف فواصل آخر السورة من أوائلها

وقد تبدل فواصل آخر السورة أوائلها تنشيطاً للسامع، وإشعاراً بلطافة الكلام، مثل: "إِذَا" و"هَذَا" فى آخر سورة مريم؛ ومثل: "سلاماً" و"كراماً" فى آخر سورة الفرقان؛ ومثل: "طين" و"ساجدين" و"منظرين" فى آخر سورة ص، مع أن الفواصل فى أوائل هذه السور جاءت مختلفة عنها، كما لا يخفى فجعل الوزن والقافية اللذان مضى التعبير عنهما ^(١) مهماً فى أكثر السور.

منهج القرآن فى الفواصل

إن كان اللفظ فى آخر الآية صالحاً للقافية فيها، وإلا وصل بجملة فيها بيان آلاء الله، أو تنبيه للمخاطب، كما يقول: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد يُطلب فى مثل هذه المواضع، مثل: ﴿فَسْتَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ ^(٢) ويستعمل التقديم والتأخير تارة، والقلب والزيادة أخرى، مثل: ﴿إِنْ يَأْسِينَ﴾ ^(٣) فى إيلياس، ﴿وَطُورٍ سِينِينَ﴾ ^(٤) فى سيناء.

(١) أى بالتوافق التقريبي، والمدة المعتمدة على حرف. (٢) سورة الفرقان ٥٩ (٣) سورة الصافات ١٣٠ (٤) سورة التين ٢.

السّر في الآية الطويلة مع الآيات القصيرة، وبالعكس

وليعلم ههنا: أن انسجام^(١) الكلام وسهولته على اللسان — لكونه مثلاً سائراً
اولتكرار ذكره في الآية — يجعل الكلام الطويل موزوناً مع الكلام القصير.

وربما يؤتى بالفقر الأول أقصر من الفقر التالية، وهو يفيد عذوبة في
الكلام نحو قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾^(٢)؛ فكان المتكلم يضمن في نفسه في مثل هذا
الكلام: أن الفقرة الأولى مع الثانية في كفة^(٣) والفقرة الثالثة وحدها في كفة.

الآية ذات القوائم الثلاث

وربما تكون الآية ذات قوائم ثلاث، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ آيَاتُهُمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ الْآيَةُ﴾^(٤)
والعامة يصلون الأولى مع الثانية فيحسبونها طويلة.

الآية ذات الفاصلتين

وقد يجيء سبحانه وتعالى بفاصلتين في آية واحدة^(٥) كما يكون ذلك
في البيت أيضاً، نحو:

كانزه في ترف، والبدر في شرف والبحر في كرم، والدهر في همم^(٦)

أطول آية مع الآيات القصار

وقد يجيء بالآية الواحدة أطول من سائر الآيات^(٧) والسرفيه: أنه لو وضع

(١) انسجام الكلام: انتظم (٢) سورة الحاقة ٣٠ - ٣٢ (٣) الكفة من الميزان: ما يجعل
فيه الموزون (٤) سورة آل عمران ١٠٥ - ١٠٧ (٥) كقوله تعالى " رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ،
وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ " (الرحمن ١٧) وقوله تعالى: " مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا، فَلَمْ
يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا " (نوح ٢٥). (٦) والشعر من القصيدة البردة في وصف
النبي صلى الله عليه وسلم، والترف: النعمة والمعنى: أنه صلى الله عليه وسلم مثل
الزهر في اللطافة، والبدر في الشرف، والبحر في الكرم، والدهر في العزم على الشيء (٧)
كما في سورة المدثر ٣١ لأنها أطول مما قبلها.

حسنُ الكلام الذى نشأ من تقارب الوزن ووجدان الأمر المنتظر الذى هو القافية، فى كَيْفَةٍ، ووُضِعَ حسنُ الكلام الذى نشأ من سهولة الأداء وموافقة طبع الكلام، وعدم لحوق التغير فيه، فى كفة أخرى، ترجَّح الفطرة السليمة جانب المعنى ^(١) فيُهيئُ أحد الانتظارين، ويوفى الحق فى الانتظار الثانى.

لم يُراعِ ذلك الوزن والقافية فى بعض السور

وأما قلنا فى فاتحة المبحث: أن سنة الله تعالى قد جرت فى أكثر السور على ذلك، فإنما هو لأجل أن الله سبحانه وتعالى لم يُراعِ فى بعض السور ذلك النوع من الوزن والقافية فجاءت طائفة من الكلام على منهج خُطِبَ الخطباء وأمثال الحكماء؛ ولعلك قد سمعت مسامرة النساء المروية عن سيدتنا عائشة رضى الله عنها ^(٢) وفهمت قوافيها؛ ووقع الكلام فى بعض السور على منهج رسائل العرب بدون رعاية شيء، مثل محاوراة الناس؛ إلا أنه يختم كل كلام بشيء يكون مبنيا على الاختتام.

والسر هنا: أن الأصل فى لغة العرب هو الوقف فى موضع ينتهى إليه النفس، ويضمحل نشاط الكلام؛ والمستحسن فى محل الوقف انتهاء النفس على المدة؛ ومن أجل هذا تشكّل الكلام فى صورة الآيات، هذا ما فتح الله تعالى على العاجز فى هذا الباب، والله أعلم.

وجه اختيار الأوزان والقوافى الجديدة: ^(٣)

وإن سألوا: لماذا لم يختَر سبحانه وتعالى تلك الوزن والقافية اللذين هما معتبران عند الشعراء، وهما ألد من هذا؟

قلنا: كونهما ألد يختلف باختلاف الأقوام والأذهان؛ ولو سلمنا: ^(٤) فإبداع

(١) يعنى ترجّح حسن الكلام الذى نشأ من سهولة الأداء الخ (٢) صحيح البخارى ص ٧٧٩ (٣) غيرت هذا البحث من موضعه إلى هنا لأتساقه مع مباحث الفصل (٤) أى لو سلمنا أن أوزان الشعراء وقوافيهم ألد مطلقا عند جميع طوائف الناس لقلنا: إبداع الخ.

أسلوب من الوزن والقافية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو
أمي — آية ظاهرة على نبوته صلى الله عليه وسلم.

ولو نزل القرآن على أوزان الأشعار وقوافيها لحسب الكفار أنه هو الشعر
المعروف المشهور عند العرب، ولم يَجْنُوا من ذلك الحساب فائدة، كما أن
البلغاء من الشعراء والكتاب حين يحاولون إبراز مزيتهم، ورجحانهم على
أقرانهم على رؤوس الأشهاد يستنبطون صناعة جديدة، ويتحدّون: "هل من
رجل يقرض الشعر مثلي، ويكتب الرسالة نحوي؟" ولو جرى هؤلاء على
النمط القديم لم تظهر براعتهم إلا على المحققين البارعين.

الفصل الثالث

في

وجه التكرار في العلوم الخمسة، وعدم الترتيب في بيانها
١- إن سألوا: لماذا كرّرت مطالب العلوم الخمسة في القرآن العظيم؟ ولم لم
يكتب سبحانه وتعالى بيانها في موضع واحد؟

قلنا: إن ما نريد إفادته للسامع على قسمين:

الأول: أن يكون المقصود هناك مجرد تعليم مالا يعلم؛ فالمخاطب الذي
لا يدري حكماً من الأحكام، ولم يدركه عقله، إذا سمع هذا الكلام يصير
ذلك المجهول عنده معلوماً.

والثاني: أن يكون المقصود استحضار صورة ذلك العلم في قوته المدركة
ليتلذذ به لذة تامة، وتفنى القوى القلبية والإدراكية في ذلك العلم؛ ويغلب لون
ذلك العلم القوى كلها، حتى تنصبغ به؛ كما نكرر الشعر الذي علمنا معناه،
ف نجد كل مرة لذة جديدة، ونحب التكرار لأجل هذه الفائدة.

والقرآن العظيم أراد إفادة القسمين المذكورين بالنسبة إلى كل واحد من
مباحث العلوم الخمسة، فأراد تعليم مالا يعلم بالنسبة إلى الجاهل، وأراد

انصبأَ النفوس بتلك العلوم بتكرارها بالنسبة إلى العالم؛ اللهم إلا أكثر مباحث الأحكام، فإنه لم يقع فيها هذا التكرار؛ لأن الإفادة الثانية غير مطلوبة فيها. ولأجل ذلك أمرنا الله تعالى بتكرار التلاوة والإكثار منها، ولم يكتف بمجرد الفهم.

ولكن راعى سبحانه وتعالى مع التكرار هذا القدر من الفرق: أنه اختار في أكثر الأحوال تكرار تلك المطالب بعبارة طريفة، وأسلوب جديد، ليكون أوقع في النفوس، وألذ في الأذهان، ولوكرر سبحانه وتعالى بلفظ واحد لكان كالورْد^(١) الذي يكررونه؛ وأما في صورة اختلاف التعابير، وتنوع الأساليب فيخوض الذهن، ويتعمق الخاطر بأسره في تلك المطالب.

٢- وإن سألوا: لماذا نُشِرت هذه المطالب في القرآن العظيم، ولم يُراع الترتيب: فيذكر آلاء الله أولاً، ويستوفي حَقَّها، ثم يذكر أيام الله فيكْمِلُها، ثم يبدأ بالجدل مع الكفار؟

قلنا: إن قدرة الله تبارك وتعالى وإن كانت محيطة بجميع الممكنات، ولكنَّ الحاكم في هذه الأبواب هو الحكمة.

والحكمة: هي موافقة المبعوث إليهم في اللسان وأسلوب البيان، وإلى هذا المعنى أشير في قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا: لَوْلَا فَصَّلْتَ آيَاتُهُ؟ ءَأَغْجَمِي وَعَرَبِيٌّ﴾^(٢).

ولم يكن لدى العرب إلى وقت نزول القرآن أى كتاب: لا من الكتب الإلهية، ولا من مؤلفات البشر؛ وإن الترتيب الذى اخترعه المصنفون اليوم لم يكن يعرفه العرب؛ وإن كنت فى ريب من هذا، فتأمل قصائد الشعراء المُخَضَّرِمين^(٣) وأقرأ سائل النبى الكريم صلى الله عليه وسلم، ومكاتيب عُمَرَ

(١) الورْدُ: الوظيفة أى النصيب من القرآن أو الذكر، يقال: قرأت ورْدِي. (٢) سورة فصلت ٤٤ (٣) المخضرم: الذى مضى شيء من عمره فى الجاهلية وشيء فى الإسلام؛ وخصهم بالذكر ليعرف أسلوب العرب وقت نزول القرآن.

الفاروقِ رضى الله عنه، يتَّضح لك هذه الحقيقة؛ فلو جاء الكلام على غير ما كانوا يعهدونه من طرائق البيان، لوقعوا فى الحيرة، وَلَوْصَلَ إلى سمعهم شيء لا يالفونه، ولشؤس عقولهم.

وأيضاً: لم يكن المقصود مجرد إفادة ما لا يعلمونه، بل المقصود هو الإفادة مع الاستحضار والتكرار؛ ويتوفّر هذا المعنى فى غير المرتب بأقوى وجه وأتم صورة.

الفصل الرابع

فى

وجوه إعجاز القرآن الكريم

وإن سألوا: ما هو وجه الإعجاز فى القرآن الكريم؟

قلنا: الذى تحقّق عندنا هو أن وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم كثيرة:

١- منها: الأسلوب البديع — لأن العرب كانت لهم عدّة ميادين يرْكُضون فيها جَوَادَ البلاغة، ويتسابقون فيها مع أقرانهم، ألا، وهى القصائد والخطب والرسائل والمُحَاوَرَات؛ ولم يكونوا يعرفون غير هذه الأصناف الأربعة، ولم يكن عندهم قدرة على إبداع أسلوب سواها؛ فإبداع أسلوب غير أساليبهم على لسان النبی الأمى صلى الله عليه وسلم عین الإعجاز.

٢- ومنها: الإخبار عن القِصَصِ الماضِية وأحكام الملل السابقة، على وجه يصدّق الكتب السابقة بدون تعلّم من أحد.

٣- ومنها: الإخبار بالأحوال الآتية؛ فكُلّما وُجد شيء منها على طبق ذلك الإخبار، ظهر إعجاز جديد.

٤- ومنها: الدرجة العليا من البلاغة التى ليست من مقدور البشر — ونحن إذ جئنا بعد العرب الأولين، لانستطيع أن نصِلَ إلى كُنْهها؛ ولكنّ القدر الذى

نعلمه، هو أن استعمال الكلمات الجزلة^(١) والتركيبات العذبة مع اللطافة وعدم التكلف، كما نجد ذلك في القرآن العظيم، لانجد مثله في أي قصيدة من قصائد المتقدمين والمتأخرين، وهذا أمر ذوقى يدركه — كما ينبغي — المهرة من الشعراء، ولا يتذوقه العامة.

وكذلك نعلم أن في أنواع التذكير الثلاثة، والجدل مع الكفار تُكسَى المطالب في كل موضع حسب أسلوب السورة، لباساً جديداً طريفاً، تقصُر يد المتناول عن ذيله.

وإن تعمّر إدراك ذلك على أحد فليتأمل في إيراد قصص الأنبياء في سورة الأعراف وهود والشعراء، ثم لينظر إليها في الصافات، ثم ليقرأ هذه القصص نفسها في الذاريات، ليتجلى له الفرق.

وكذلك الحال في ذكر تعذيب العصاة وتنعيم المطيعين، فقد يذكّر ذلك في كل مقام بأسلوب جديد؛ وهكذا تخصّم أهل النار بعضهم مع بعض، يتجلى في كل مقام في صورة جديدة؛ والكلام في هذا يطول.

وكذلك نعلم أيضاً أن رعاية مقتضى الحال الذي تفصيله في علم المعاني، واستعمال الاستعارات والكنائيات، التي تكفل ببيانها علم البيان، مع مراعاة حال المخاطبين الأميين الذين يجهلون هذه الصناعات، لا يتصوّر كل ذلك أحسن مما يوجد في القرآن العظيم؛ وذلك لأن المطلوب في القرآن الكريم أن تؤدّع في المخاطبات المعروفة^(٢) التي يعرفها كل أحد من الناس، نكتة راقية مفهومة عند العامة، مرضية عند الخاصة؛ وهذا الأمر كالجمع بين الضئيلين، ليس من مقدور البشر، والله على كل شيء قدير، ولله درّ الشاعر حيث يقول: (٣)

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدتَه نظراً

(١) الجزل من الكلام: القوى الفصيح الجامع. (٢) الجوار العام (٣) قد ذكر المصنف هنا شعراً فارسياً، وهو

زفرق تاقدمش هر کجا که می گزرم کرشمه دامن دل می کشد که با انجاست

هـ - ومنها: وجّة لا يتيسر فهمه لغير المتدبرين في أسرار الشرائع؛ وذلك: أن العلوم الخمسة نفسها تدل على أن القرآن نازل من عند الله تعالى، لهداية بني آدم؛ كما أن عالم "الطب" إذا نظر في "القانون"^(١) ولا حَظَّ تحقيقه وتدقيقه في بيان أسباب الأمراض وعلاماتها، ووصف الأدوية وخواصّها، لا يَشْكُ أن المؤلف كامل في صناعة الطب؛ كذلك إذا علم العالم بأسرار الشرائع الأشياء التي ينبغي تلّينها للناس لتهديب نفوسهم، ثم يتأمل في العلوم الخمسة، يَعلَم قطعاً: أن هذه الفنون قد وقعت موقّعها، بحيث لا يتصور أحسن منه: والشمسُ الساطعةُ تدل بنفسها على نفسها فإن كنتَ في حاجة إلى الدليل فلا تُؤَلِّ وجهك عنها^(٢)

الباب الرابع

في

بيان مناهج التفسير وتوضيح الاختلاف الواقع في تفاسير الصحابة والتابعين.

طوائف المفسرين:

ليُعلم أن المفسرين عدّة أصناف:

• جماعة قصدوا رواية آثار مناسبة للآيات، سواء كان حديثاً مرفوعاً أو موقوفاً أو مقطوعاً^(٣) أو خبراً إسرائيلياً — وهذا طريق المحدثين.

(١) القانون في الطب للشيخ الرئيس أبي علي حسين بن عبد الله المعروف بابن سينا،

المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (٢) ليس هذا بشعر، إنما هو ترجمة للشعر الفارسي:

آفتاب آمد دلیل آفتاب گر دلیلت باید از وی رومتاب

(٣) الحديث المرفوع: ما رُفِعَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم. والحديث الموقوف: ما

انتهى إلى الصحابي، والحديث المقطوع: ما انتهى إلى التابعي

• وفرقة قصدوا تأويل آيات الصفات والأسماء ؛ فمالم يُوافق منها مذهب التنزية^(١) صرفوها عن الظاهر، وردوا على استدلال المخالفين ببعض الآيات — وهذا طريق المتكلمين.

• وقوم صرفوا عنايتهم إلى استنباط الأحكام الفقهية، وترجّح بعض المجتهدين على بعض والجواب عن تمسك المخالفين — وهذا طريق الفقهاء الأصوليين..

• وجمع أوضحوا إعراب^(٢) القرآن ولغته، وأوردوا الشواهد من كلام العرب في كل باب موفورة تامة — وهذا منهج النحاة اللغويين.

• وطائفة يذكرون نكات المعاني والبيان بيانا شافيا، ويتفاخرون في ذلك الباب — وهذا طريق الأدباء.

• واهتم بعضهم برواية القراءات المأثورة عن شيوخهم، فلم يدعوا دقيقا ولا جليلا في هذا الباب إلا جازأ به — وهذه صفة القراء.

• وبعضهم يُطلقون اللسان بنكات متعلقة بعلم السلوك أو علم الحقائق^(٣) بأدنى مناسبة — وهذا مشرب الصوفية.

وبالجملة: فالمجال واسع، ويقصد كل منهم تفهيم معاني القرآن الكريم، وخاض في فن من الفنون، وتكلم على قدر فصاحته وفهمه، وأخذ مذهب أصحابه نصب عينيه؛ ولأجل ذلك اتسع مجال التفسير اتساعاً لا يحدُّ قدره، وصُنِّفَت كتب كثيرة لا يحصرها عدد.

جوامع التفاسير

وقصد جماعة منهم إلى جمع ذلك كله في تفاسيرهم، فمنهم من تكلم بالعربية، ومنهم من تكلم بالفارسية، واختلفوا في الاختصار والإطناب، ووسَّعوا أذيال العلم.

(١) مذهب التنزية: هو مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الصفات المتشابهات. (٢) قوله إعراب القرآن يعنى نحو القرآن وصرفه (٣) علم السلوك: هو علم الإحسان، وعلم الحقائق كالغاية له.

ما من الله به على في علم التفسير

وقد حصل للفقير — بحمد الله تعالى وتوفيقه — مناسبة في كل فن من هذه الفنون ، وأحطت بمُعظم أصولها ، وبجملة صالحة من فروعها ، وفُزْتُ بنوع من التحقيق والاستقلال في كل باب من أبوابها ، بوجه يُشبه الاجتهاد في المذهب^(١) وألقى في خاطري من بحر الجود الإلهي ثنان أو ثلاثة من فنون التفسير ، سوى الفنون المذكورة سالفاً ، وإن سألتني عن الخبر الصدق فانا تليمذ القرآن العظيم بلا واسطة ؛ كما أنى أويس^(٢) في الاستفادة من روح النبي صلى الله عليه وسلم ، وكما أنى مستفيد من الكعبة الحسنة^(٣) بدون واسطة ، وكذلك متأثر بالصلاة العظمى^(٤) بغير واسطة :

ولو أن لي في كل منبت شجرة لسانا لما استوفيت واجب حمده وأرى من اللازم أن أكتب كلمات عديدة في هذه الرسالة عن كل فن من هذه الفنون^(٥).

(١) الاجتهاد في المذهب : هو أن يكون الرجل مجتهداً مستقلاً في الفروع لافي الأصول . (٢) نسبة إلى أويس بن عامر القرني الزاهد التابعي وحديث فضله في صحيح المسلم في كتاب فضائل الصحابة (١٦ : ٩٤) كان أسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو باليمن ، وكان له أم ، وكان باراً بها ، فلم يسافر من اليمن للقاء النبي صلى الله عليه وسلم ، واستفاد من روحه صلى الله عليه وسلم ، فبلغ منازل السائرين ، كذلك صاحبنا الإمام استفاد منه صلى الله عليه وسلم بلا واسطة وبدون لقاء . (٣) الكعبة الحسنة : كعب شريف والمسلمون يستفيدون منها بواسطة الصلاة ؛ والكملة من الرجال يستفيدون منها بلا واسطة ؛ والحسنة تأنيث الحسن . (٤) الصلوات المفروضة والنافلة ، وكذا الصلوات الخمس كلها أفراد الصلاة المطلقة الكاملة وهي الصلاة العظمى التي تمثل في عالم المثال ، فإن المعنويات لها أجسام هناك والمسلمون يتأثرون بها بواسطة أفرادها ، وأما الذين بلغوا أقصى مدارج السالكين فيتأثرون بها بدون واسطة أيضاً وإليه الإشارة في قوله صلى الله عليه وسلم " جعلت قرعة عيني في الصلاة " ولكن مهما بلغ الرجل المنازل لا يستغنى عن أفرادها وإليه الإشارة في قوله صلى الله عليه وسلم : " أرحنا بها يا بلال " (٥) يعني من الفنون مناهج المفسرين ، لم اعلم أن الإمام تحدث في الفصل الأول عن تفسير المحدثين وفي الفصل الثاني عن بقية الأصناف .

الفصل الأول

فى

بيان الآثار المروية فى تفاسير أصحاب الحديث، وما يتعلق بها

قسمان من أسباب النزول

ومن جملة الآثار المروية فى كتب التفسير بيان سبب النزول ؛ وأسباب النزول على قسمين:

الأول: أن تقع حادثة يُمَخَّص بها إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين، كما وقع ذلك فى غزوتى أحد والأحزاب ، فأنزل الله تعالى مدح أولئك وذم هؤلاء، ليكون فيصلاً بين الفريقين؛ وتقع فى أثناء ذكر الحادثة تعريضات كثيرة بخصوصياتها؛ فيجب أن تُشَرَّح الحادثة بكلام مختصر ليُتَّصَح على القارئ سياق الكلام.

والثانى: أن يكون معنى الآية تاماً بعموم صيغتها، من دون حاجة إلى معرفة القصة التى هى سبب النزول ، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب؛ والقدماء من المفسرين قد ذكروا تلك الحادثة بقصد استيعاب الآثار المناسبة للآية، أو بقصد بيان ما صدق عليه عموم الآية؛ وليس من الضرورى ذكر هذا القسم.

معنى قولهم: "نزلت الآية فى كذا"

وقد تحقَّق لدى الفقير: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كثيراً ما كانوا يقولون: "نزلت الآية فى كذا" ويكون غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية، أو ذكر بعض الحوادث التى تشتملها الآية بعمومها، سواء تقدَّمت القصة على نزول الآية أو تأخرت عنه، إسرائيلية كانت القصة أو جاهلية أو إسلامية؛ تنطبق على جميع قيود الآية أو بعضها، والله أعلم.

فَعَلِم من هذا التحقيق: أن للاجتهاد فى هذا القسم^(١) مدخلاً، وللقصص

(١) أى فى الصورتين المذكورتين، وهما: تصوير ما صدقت الخ.

المتعددة هناك مجالا؛ فمن استحضر هذه النكته يستطيع أن يعالج اختلاف أسباب النزول بأدنى تأمل.

أمور في التفسير لا طائل تحتها

ومن جملة ذلك: (١) تفصيل قصة وقع في نظم القرآن تعريض بأصلها، فيستقصي (٢) المفسرون تفاصيلها من أخبار بني إسرائيل أو من كتب السير فيذكرونها بجميع أجزائها.

وهنا أيضًا تفصيل: إن كانت الآية تشتمل على تعريض بالقصة، بحيث يتوقف العارف باللغة هناك، ويبحث عنها، فذكرها من وظيفة المفسر؛ وما كان خارجا منها — مثل ذكر بقرة بني إسرائيل: أذكرا كانت أم أنثى؟ ومثل بيان كلب أصحاب الكهف: هل كان أبقع (٣) أم أحمر؟ — فذكره ممالا يعنيه؛ وكانت الصحابة رضى الله عنهم يكرهونه، ويعذونه من قبيل تضييع الأوقات.

القدماء ربما يفسرون على سبيل الاحتمال وليُحفظ ههنا أيضًا نكتتان:

الأولى: أن الأصل في هذا الباب (٤) إيراد القصص المسموعة، كما رؤيت: من غير تصرف عقلي فيها، وأما طائفة من قدماء المفسرين فيضعون ذلك التعريض نصب أعينهم، ويفرضون له محملا مناسباً، ويبينونه على سبيل الاحتمال، فيشبه الأمر على المتأخرين. ولما لم تكن أساليب البيان منقحة في ذلك العصر، فربما يشبه التفسير على سبيل الاحتمال بالتفسير مع الجزم، فيذكرون أحدهما مكان الآخر؛ وهذا أمر اجتهداى، وللنظر العقلي فيه مجال، ورغض جياذ القيل والقال هناك ممكن.

ومن حفظ هذه النكته فإنه يستطيع أن يحكم حكماً فضلاً في كثير من مواضع الاختلاف بين المفسرين؛ ويمكن أن يعلم في كثير من مناظرات

(١) أى من الآثار المروية في كتب التفسير. (٢) استقصى الأمر: بلغ أقصاه في البحث عنه (٣) الأبقع: سايوسفيدانغول واللا (٤) أى في بيان القصص في تفسير الآيات.

الصحابه رضى الله عنهم : انها ليست آرائهم القطعية ، بل هى بحوث علمية ، يتداولها المجتهدون فيما بينهم .

وعلى هذا المحمل يُحمِلُ العبد الضعيف قول ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (١) : "لا اجد فى كتاب الله إلا المسح ، لكنهم أبوا إلا الغسل" (٢) فالذى يفهمه الفقير : أنه ليس هذا بذهاب منه إلى وجوب المسح ، وليس فيه جزم بحمل الآية على ركنية المسح ؛ بل الذى ثبت عند ابن عباس رضى الله عنهما هو الغسل ؛ ولكنه يقرُّرُها إشكالاً ، ويُبدى احتمالاً ، ليرى كيف يُطبَّقُ علماء عصره فى هذا التعارض ؟ رأى مسلك يسلكونه ؟ فزعم الذى لم يطَّاع على حقيقة محاورات السلف هذا قول ابن عباس رضى الله عنه ، وعدّه مذهبا له حاشاه ! ثم حاشاه !!

النقل عن بنى إسرائيل دَسِيسَة دخلت فى ديننا

النكتة الثانية : هى أن النقل عن بنى إسرائيل دسيسة (٣) دخلت فى ديننا بعد ما كانت قاعدة : "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم" (٤) مقررّة ؛ فلزم لأجل ذلك أمران :

الأول : أن لا يُرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا وجد فى سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بيان لتعريض القرآن ؛ مثلاً حينما وجد لقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ،

(١) سورة المائدة ٦ (٢) والأثر فى روح المعانى (٦ : ٧٧) ومعناه : أن ظاهر الكتاب يوجب المسح على قراءة الجور ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يفعلوا إلا الغسل ؛ ففى كلامه هذا إشارة إلى أن قراءة انجر مؤولة متروكة الظاهر بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابه رضى الله عنهم (روح المعانى) (٣) الدسيسة : ما أُخِمين من المكر والعداوة (خفيه سازش وعداوت) (٤) رواه البخارى كما فى المشكوة رقم الحديث ١٥٥ كتاب الإيمان باب الاعتصام الخ ، وفيه النهى عن تصديق أهل الكتاب فيما لا يعرف صدقه من قبل الكتاب والسنة ؛ وفى النقل عنهم ، من غير ردِّ عليهم ؛ تصديق لهم فلا يجوز ، ولكن الناس تساهلوا فى هذا الباب .

وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً، ثُمَّ أَنَابَ ﴿١﴾ محمّل في السنة النبوية — وهو قصة ترك "إن شاء الله" والمؤاخذه عليه — فأى حاجة إلى ذكر قصة صخر المارد؟
والثاني: أن يتكلم بقدر اقتضاء التعريض نظراً إلى قاعدة: "الضرورة يتقدّر بقدر الضرورة" (٢)، ليتمكن تصديقه بشهادة القرآن، وليكفّ لسانه عن الزيادة عليه.

تفسير القرآن بالقرآن

وهنا نكتة لطيفة إلى الغاية، لا بد من معرفتها، وهي: أنها قد تُذكر في القرآن العظيم قصة (٣) في موضع بالإجمال، وفي موضع آخر بالتفصيل، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤) ثم قال بعد ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْذَرُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٥) فهذا القول الثاني هو القول الأول بنوع من التفصيل، فيمكن أن يُعلم به تفسير ذلك الإجمال، ويتركّض من الإجمال إلى التفصيل.

ومثلاً: ذُكر في سورة مريم قصة سيدنا عيسى عليه السلام إجمالاً، فقال تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (٦)، وذُكرت في سورة آل عمران تفصيلاً، فقال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (٧) الآية، ففي هذه المقولة بشارة تفصيلية، وتلك المقولة بشارة إجمالية؛ فمن ثم استنبط العبد الضعيف أن معنى الآية: "ورسولا إلى بني إسرائيل، مُنْجِراً بآني قد جئتكم" وهذا كله داخل في حيز البشارة، ليس بمتعلق بمحذوف، كما أشار إليه السيوطي، حيث قال (٨): "فلما بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل قال لهم: "إني رسول الله إليكم، بآني قد جئتكم" والله أعلم.

(١) سورة ص ٣٤ (٢) القاعدة الحادية والعشرون في شرح القواعد الفقهية للشيخ الزرقاء (ص ١٣٣). (٣) معنى مضموناً، لاقصة معروفة لقط (٤) سورة البقرة ٣٠ (٥) سورة البقرة ٣٣ (٦) سورة مريم ٢١ (٧) سورة آل عمران ٤٩ (٨) تفسير الجلالين ص ٥١.

وجه اختلاف السلف فى شرح غريب القرآن وكيف يخرج المفسر من العهدة فى ذلك؟

ومن جملة ذلك: ^(١) شرح الغريب؛ ومبناه على تتبّع لغة العرب، أو التفطن ^(٢) بسياق الآية وسباقها ^(٣) ومعرفة مناسبة اللفظ بأجزاء الجملة التى وقع هوفيهما؛ فههنا أيضًا للعقل مدخل، وللأختلاف مجال؛ لأن الكلمة الواحدة تأتى فى لغة العرب لمعان شتى، وتختلف العقول فى تتبّع استعمالات العرب، والتفطن بمناسبة السابق واللاحق؛ ولهذا اختلفت أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى هذا الباب، وسلك كل منهم مسلكًا.

فلا بد للمفسر المنصف: أن يزّن شرح الغريب مرتين:

- مرة فى استعمالات العرب حتى يعرف: أى وجه من وجوهها أقوى وأرجح.
- ومرة أخرى فى مناسبة السابق واللاحق، حتى يعلم: أى الوجهين أولى وأقعد ^(٤) بعد إحكام المقدمات، وتتبع موارد الاستعمال، وتفحص الآثار.

استنباطات العبد الضعيف فى شرح الغريب

وقد استنبط الفقير فى هذا الباب استنباطات طازجة ^(٥) لا يخفى لطافتها إلا على المتعسف ^(٦) غليظ الطبع، مثلاً:

- قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ ^(٧) حملته على معنى: "تَكَاوُفُ الْقَتْلِ"، ومشاركة بعضهم مع بعض فى حكم واحد "لئلا يحتاج فى تفسير قوله تعالى ﴿الْأَنْتَى بِالْأَنْتَى﴾ إلى مؤونة ^(٨) النسخ، ولا يضطر إلى توجيهات تضمحل بآدنى التفات.

(١) أى من الآثار المروية فى كتب التفسير. (٢) تفطن به أى تنبّه له (٣) السياق — نالء التحناتىة — هو القرينة اللاحقة، والسابق — بالباء الموحدة — هو القرينة السابقة. (٤) الأقمذ والقعيد: الأقرب (٥) الطازج: الجديد الحديث معرب تازّه (٦) المتعسف ضد المنصف من تعسف فلانا: ظلمه (٧) سورة البقرة ١٧٨. (٨) المؤونة: مخي، بوجه، شقت.

• وكذلك حملت قوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِةِ﴾^(١) على معنى: "يسئلونك عن الأشهر" أى أشهر الحج؛ فقال تعالى: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾
 • وهكذا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾^(٢) أى: لأول جمع الجنود، لقوله تعالى: ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿وَحَشِيرٌ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾^(٤)؛ وهذا أولق بقصة بنى النضير، وأقوى فى بيان المنة.

اختلاف المتقدمين والمتأخرين فى معنى "النسخ"

مما أوجب الاختلاف فى عدد الآيات المنسوخة

ومن جملة ذلك: بيان الناسخ والمنسوخ؛ وينبغى أن تُعرف هنا نكتان:
 الأولى: أن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كانوا يستعملون "النسخ" بغير المعنى الاصطلاحي المعروف بين الأصوليين؛ ومعناهم قريب من المعنى اللغوى الذى هو "الإزالة".

فمنى النسخ عندهم: إزالة بعض أوصاف الآية المتقدمة بالآية المتأخرة، سواء كان ذلك ببيان انتهاء مدة العمل بها، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو ببيان كون قيد من القيود مُفحماً، أو بتخصيص عام، أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ما قيس عليه ظاهراً، أو ما أشبه ذلك. وهذا باب واسع، وللعقل فيه مجال، وللاختلاف فيه مساع، ولهذا أبلغوا الآيات المنسوخة إلى خمس مائة آية.

ربما يجعل الإجماع علامة للنسخ

والثانية: أن الأصل فى بيان النسخ بالمعنى الاصطلاحي هو معرفة تاريخ النزول؛ ولكنهم ربما يجعلون إجماع السلف الصالح، أو اتفاق جمهور العلماء على شيء، علامة للنسخ، فيقولون به؛ وقد فعل ذلك كثير من الفقهاء؛ ويمكن

(١) سورة البقرة ١٨٩ (٢) سورة الحشر ٢ (٣) سورة الشعراء ٣٦ (٤) سورة النمل ١٧.

أن يكون في مثل هذه المواضع، ما تصدق عليه الآية غير ما ينطبق عليه الإجماع.
وبالجملة: ففي الآثار التي تنبئ عن النسخ غمراً^(١) عظيم، يصعب الوصول إلى غوره.

أمور أخريد كرونها في التفاسير

وللمحدثين أشياء أخرى خارجة عن هذه الأقسام، يوردونها أيضاً في تفاسيرهم، كمناظرة الصحابة رضى الله عنهم في مسئلة واستشهادهم بآية، أو تمثيلهم بآية من الآيات، أو تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم آية من الآيات، أو رواية حديث يوافق الآية في أصل معناها، أو طريق التلفظ بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

الفصل الثاني

في

بقية لطائف هذا الباب

الكلام حول استنباط الأحكام:

ومن جملة ذلك: (٢) استنباط الأحكام — وهذا الباب واسع جداً، وللعقل مجال فسيح في الاطلاع على فحارَى الآيات، وإيماءاتها، واقتضاءاتها؛ (٣) والاختلاف بحذافيره^(٤)، حاصل فيه؛ وقد ألقى الله تعالى في رُوع الفقير حَصَرَ

(١) الفقر: الماء الكثير ومعظم البحر والجمع غِمار وغمور. (٢) أى من جملة فنون التفسير ومناهجه (٣) الفخوى: أن يفهم الكلام حال المسكوت عنه بواسطة المعنى الحامل على الحكم، مثل "لا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ" يفهم منه حرمة الضرب بطريق الأولى، والإيماء: أن يكون أداء المقصود بعبارات يازاء الاعتبارات المناسبة، كالتيقيد بالوصف والشرط يدلان على عدم الحكم عند عدمهما، والاقتضاء: أن يفهم الكلام حال المسكوت عنه بواسطة لزومه للمسعمل فيه عادة أو عقلاً أو شرعاً، كقوله: "بعث" يقتضى سبق الملك شرعاً. (٤) بحذافيره أى بأسره جمع الجذفار والحذفور: الجانب والناحية.

الاستنباطات فى عشرة أقسام^(١)، والترتيب فيما بينها؛ وتلك المقالة ميزان عظيم لوزن كثير من الأحكام المستنبطة^(٢).

التوجيه فى تفسير القرآن الكريم

ومن جملة ذلك: التوجيه — وهو فن كثير الشعب، يستعمله الشراح فى شرح المتون، ويُختبر به ذكائهم، ويظهر به تفاوت درجاتهم. وقد تكلم الصحابة رضى الله عنهم — وإن لم تكن أصول التوجيه منقحة فى عصرهم — فى توجيه الآيات الكريمة، وأكثروا منه. وحقيقة التوجيه: أنه إذا وقعت صعوبة فى فهم كلام مؤلف، يقف الشارح هناك، فيحل تلك الصعوبة.

ولمالم تكن أذهان قراء الكتاب فى مرتبة واحدة، لم يكن "التوجيه" أيضًا فى مرتبة واحدة؛ فالتوجيه بالنسبة إلى المبتدئين غير التوجيه بالنسبة إلى المنتهين: إذ ربما يخطر بالالمنتهى صعوبة فهم، فيحتاج إلى حلها، والمبتدى غافل عنها، بل لا يقدر أن يحيط بها؛ وكثير من الكلام يستصعبه المبتدى، ولا يحصل فى ذهن المنتهى شيء من الصعوبة هناك؛ فالذى أحاط بجوانب العقول، يراعى حال جمهور القراء، ويتكلم على قدر عقولهم.

فعمدة التوجيه.

- فى آيات الجدل: تحريم مذاهب الفرق الباطلة، وتنقيح وجوه الإلزام.
- وفى آيات الأحكام: تصوير صورة المسئلة، وبيان فوائد القيود، من الاحتراز أو غيره.

(١) وهى: ١- ما صرح فيه بقبول الحكم، للموضوع له عينا، وسبق الكلام لأجله ٢ و٣ و٤- ما عُدّ فيه أحد القيود الثلاثة ٥- القنوى ٦- الافتضاء ٧- الإيماء ٨- الدرج فى العموم ٩- الاستدلال بالملازمة أو المناقاة ١٠- القياس (٥) والمقالة فى حجة الله البالغة (١: ٣٠٣).

- وفي آيات التذكير بآلاء الله: تصوير تلك النعم وبيان مواضعها الجزئية .
- وفي آيات التذكير بأيام الله: بيان ترثب بعض القصص على البعض، وإيفاء حق التعريض الذي يرد في أثناء سرد القصة.
- وفي التذكير بالموت وما بعده: تصوير تلك الأمور، وتقرير تلك الحالات.

أنواع التوجيه:

ومن فنون التوجيه:

- ١ - تقريب ما كان بعيداً عن الفهم، بسبب عدم الألفة به.
 - ٢ - ودفع التعارض بين الدليلين، أو التعريضين، أو فيما بين المعقول والمنقول.
 - ٣ - والتفريق بين الملتبسَيْن.
 - ٤ - التطبيق بين المختلفين.
 - ٥ - وبيان صدق الوعد الذي أُشير إليه في الآية.
 - ٦ - وبيان كيفية عمل النبي صلى الله عليه وسلم بما أمر به في القرآن العظيم .
- وبالجملة: فالتوجيه كثير في تفسير الصحابة؛ ولا يقضى حقه حتى يُبين المفسر وجه الصعوبة مفصلاً، ثم يتكلم في حل الصعوبة بالتفصيل، ثم يزُن تلك الأقوال وزناً عدلاً

غلو المتكلمين

وأما غلو المتكلمين في تأويل المتشابهات وبيان حقيقة الصفات، فليس هذا من مذهبي، بل مذهبي مذهب مالك والثوري وابن المبارك وسائر المتقدمين؛ وهو إمرار المتشابهات على ظواهرها، وترك الخوض في تأويلها.

الجدال في القرآن

والنزاع في الأحكام المستنبطة، وإحكام مذهب نفسه، وهذم مذهب الآخرين، والاحتياَل لدفع الأدلة القرآنية، كل ذلك ليس بصحيح عندي،

وأخشى أن يكون ذلك من قبيل " التَّدَارُؤُ بِالْقُرْآنِ " (١) وإنما اللازم أن يَطلب مدلول الآيات، ويتخذ مذهباً له، سواء ذهب إليه الموافق أو المخالف.

لغة القرآن

وأما لغة القرآن فينبغي أخذها من استعمال العرب الأولين، وأن يعتمد كلياً على آثار الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

نحو القرآن

وقد وقع في نحو القرآن خلل عجيب، وهو أن طائفة من المفسرين اختاروا مذهب سيوييه، فيؤولون كل ما خالف مذهبهم، وإن كان التأويل بعيداً؛ وهذا لا يصح عندى، بل ينبغي اتباع الأقوى، والأوفى بالسياق والسباق، سواء كان مذهب سيوييه أو مذهب الفراء (٢).

وقد قال عثمان بن عفان رضي الله عنه في مثل قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (٣): "سَتَقِيمُهَا العرب بآلِسْتِهَا"؛ وتحقيق هذه الكلمة عندى: أن مخالفة التعبيرات المشهورة أيضاً تعبير صحيح؛ وكثيراً ما يتفق للعرب الأولين: أن يجرى على ألسنتهم في أثناء الخطب والمحاورات ما يخالف القاعدة المشهورة؛ ولما نزل القرآن الكريم بلغة العرب الأولين، فلا عجب: أن جاءت "الياء" في موضع "الواو" أحياناً، أو وقع المفرد مقام التثنية، أو ورد المؤنث مقام المذكر؛ فالمحقق عندى: أن يفسر "والمقيمِينَ الصلاة" بمعنى المرفوع، والله أعلم.

علم المعانى والبيان

وأما المعانى والبيان فهو (٤) علم حادث بعد انقراض عصر الصحابة

(١) التَّدَارُؤُ: التدافع، تدارأنا: تدافعنا، الخصومة ونحوها؛ ويحرم التَّدَارُؤُ بِالْقُرْآنِ بقول النسي صلى الله عليه وسلم: "إنما هلك من كان قبلكم بهذا: ضربوا كتاب الله بعضه ببعض". (٢) هويحي بن زياد أبو زكريا الكوفي، المعروف بالفراء، توفى سنة ٢٠٧هـ (٣) سورة النساء ١٦٢. (٤) أرجع ضمير المفرد، لأنهما كعلم واحد.

والتابعين رضى الله عنهم. فما كان منه مفهوماً في عرف جمهور العرب فهو على الرأس والعين؛ وأما ما كان منه مخفياً لا يدرّكه إلا المتممقون من أرباب الفن، فلا نسلم أنه مطلوب في القرآن الكريم.

إشارات الصوفية

وأما إشارات الصوفية واعتباراتهم فإنها ليست في حقيقة الأمر من علم التفسير؛ بل يحدث عند استماع القرآن الكريم أشياء في قلب السالك، وتتولد تلك الأشياء في قلبه بين النظم القرآني، وبين الحالة التي يتصف بها، أو بين المعرفة التي يملكها؛ كمثّل رجل يسمع قصة ليلي والمجنون، فيتذكر عشيقته، ويستعيد الذكريات التي كانت بينه وبينها.

فن الاعتبار

وهنا^(١) فائدة مهمة، ينبغي الاطلاع عليها، وهي: أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل "فن الاعتبار"^(٢) معتبراً، وسلك ذلك المنهج ليكون سنة لعلماء الأمة، وفتحاً لباب العلوم الموهوبة لهم:

• كما أن النبي صلى الله عليه وسلم تمثّل بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾^(٣) في مسألة القدر، وإن كان منطوق الآية: أن من عمل بهذه الأعمال نُهديه إلى طريق الجنة والنعيم، ومن عمل بضدها نفتح له طريق النار والتعذيب؛ ولكن يمكن أن يُعلم بطريق "الاعتبار": أن الله تعالى خلق كل أحد لحالة خاصة، ويُجرى عليه تلك الحالة من حيث يدرى أولاً يدرى؛ فهذا الاعتبار كان لهذه الآية الكريمة ارتباطاً بمسألة القدر.

• وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(٤) فالمعنى المنطوق لهذه الآية الكريمة: أن الله تعالى عرّف كل نفس بالبر والإثم؛ ولكن لما كانت بين خلق الصورة العلمية للبر والإثم، وبين البر

(١) أي عند ذكر اعتبارات الصوفية. (٢) الاعتبار: هو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره؛ وهو أعم من القياس الشرعي. (٣) سورة الليل ٥ (٤) سورة الشمس ٧

والإثم الموجودان بالإجمال وقت نفخ الروح مشابهة يمكن الاستشهاد بهذه الآية في مسألة القدر أيضاً من طريق الاعتبار؛ والله أعلم.

الفصل الثالث

في

بيان غرائب ^(١) القرآن الكريم

ليُعلم أن غرائب القرآن الكريم التي خُصّصت في الأحاديث بمزيد من الاهتمام وبيان الفضل ^(٢) أنواع:

١- والغريبة في فن التذكير بآلاء الله: هي آية جامعة لجملة عظيمة من صفات الحق تعالى، مثل آية الكرسي، وسورة الإخلاص، وآخر سورة الحشر، وأول سورة المؤمن.

٢- والغريبة في فن التذكير بأيام الله: هي آية يبيّن فيها قصة نادرة، أو قصة معلومة بجميع تفاصيلها، أو قصة جليلة الفوائد التي تكون محلاً للاعتبارات الكثيرة؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة موسى والخضر ^(٣) عليهما السلام: "وَدِدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبْرًا حَتَّى يَقْضَى اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِمَا" ^(٤)
٣- والغريبة في فن التذكير بالموت وما بعده: هي آية تكون جامعة لأحوال القيامة مثلاً، ولذا ورد في الحديث الشريف: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ ﴿إِذَا الشُّفُوفُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾" ^(٥).

(١) الغرائب جمع غريبة، تأنيث الغريب من غُرِبَ الكلام غَرَابَةً خَفِي؛ والمراد هنا: الطريفة النادرة البديعة (أنكم أيات) (٢) أي السور والآيات التي ورد فيها فضل خاص ولها ميزة خاصة. (٣) الخضر - بفتح فكسر - الزرع الغض الأخضر. سمي العبد الصالح به لأنه قد مر في مكان يابس فاخضرت الأرض كما في رواية البخاري رقم الحديث ٣٤٠٢ (٤) صحيح البخاري ص ٦٨٧ كتاب التفسير في تفسير سورة الكهف (٥) سنن الترمذي (٢: ١٦٨)

٤- والغريبة في فن الأحكام: هي آية تكون مشتملة على بيان الحدود، وتعيين الأوضاع الخاصة، كمثل تعيين مائة جلدة في حد الزنا، وتعيين ثلاث حيض أو ثلاثة أطهار لعدة المطلقة، وتعيين أنصاء الموارث.

٥- والغريبة في فن الجدل: هي آية يرد فيها سوق الجواب بنهج غريب، يقطع الشبهة بأبلغ وجه، أو يبين فيها حال فريق من تلك الفرق بمثل واضح، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾^(١)؛ وكذا يبين فيها شناعة عبادة الأصنام، والفرق بين مرتبة الخالق والمخلوق، والمالك والمملوك بأمثلة عجيبة؛ أو إحباط أعمال أهل الرياء والسُّمعة بأبلغ وجه.

٦- وغرائب القرآن ليست بمحصورة في الأبواب المذكورة، فأحيانا تكون غريبة من جهة بلاغة القرآن، وإناقة أسلوبه، مثل سورة الرحمن؛ ولهذا سميت في الحديث بغروس القرآن^(٢)؛ وأحيانا تكون غريبة من جهة تصوير صورة سعيد وشقي.

ظُهر القرآن وبطنه

لقد ورد في الحديث الشريف: "لكل آية منها ظُهر وبطن، ولكل حرف حدٌ ولكل حدٌ مُطْلَعٌ"^(٣)؛ فينبغي أن يُعْلَم أن ظُهر هذه العلوم الخمسة: هو مدلول الكلام ومنطوقه؛ والبطن:

- في التذكير بآلاء الله: هو التفكير في آلاء الله، ومراقبة الحق سبحانه وتعالى.
- وفي التذكير بأيام الله: هو معرفة مناسبات المدح والذم، والثواب والعقاب، من تلك القصص، والاتعاظ بها.
- وفي التذكير بالجنة والنار: هو ظهور الخوف والرجاء، وجعل تلك الأمور كأنها بمرأى منه.

(١) سورة البقرة ١٧ (٢) المشكوة ١٨٩ في فضائل القرآن (٣) رواه الطبراني في الكبير والبيهقي في شرح السنة، ورمزه السيوطي في الجامع الصغير ب (ح) أي أنه حديث حسن؛ وأوله: "أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل حرف منها الخ وفي رواية: لكل آية منها الخ.

• وفي آيات الأحكام: هو استنباط الأحكام الخفية بالقَحاوَى والإيماءات .
 • وفي مُحاجة الفرقِ الباطلة: هو معرفة أصل تلك القبائح، وإلحاق مثلها بها .
 ومُطْلَع الظهر: هو معرفة لغة العرب والآثار المتعلقة بعلم التفسير .
 ومطلع البطن: هو لطفُ الذهن واستقامة الفهم، مع نور الباطن وسكينة القلب والله أعلم .

الفصل الرابع

في

بيان بعض العلوم الوهية

من العلوم الوهية في علم التفسير التي سبقت الإشارة إليها:

١- تأويل قصص الأنبياء عليهم السلام؛ وللفقير في هذا الموضوع رسالة مسماة بتأويل الأحاديث^(١) والمراد من التأويل: هو أن يكون لكل قصة وقعت مبدأ من استعداد الرسول واستعداد قومه بحسب تدبير الله الذي أراده في ذلك الوقت؛ وكأنه أشار إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

٢- ومنها: تنقيح العلوم الخمسة التي هي منطوق القرآن العظيم؛ وقد مر تفصيلها في أول الرسالة، فليُرجع إليه .

٣- ومنها: ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية، بوجه قريب من النص العربي في مقدار الكلمات، وفي التخصيص والتعميم، وغير ذلك؛ وسميتها بـ "فتح الرحمن في ترجمة القرآن" وقد تركت هذا الشرط في بعض المواضع خوفاً من عدم فهم القارئ بدون تفصيل .

٤- ومنها: علم خواص القرآن الكريم؛ وقد تكلم جماعة من المتقدمين في

(١) رسالة مطبوعة، قصد المصنف فيها إثبات المعجزات والتدليل عليها للفلاسفة والعقلانيين؛ ولكن تأويلاته فيها لا يتفق كلياً مع ظواهر النصوص، فليتنبه له

خواص القرآن من وجهين: وجه كالدعاء، ووجه كالسحر، أعوذ بالله منه؛ وقد فتح الله على الفقير باباً وراء ما نُقل من خواص القرآن، ووَضَعَ في جِجْرِي جميع الأسماء الحسنى، والآيات العظمى، والاذعية المباركة مرة واحدة، وقال: "هذه عطاؤنا للاستعمال"؛ ولكنَّ كلَّ آية واسم ودعاء مشروط بشروط، لاتضبطها قاعدة؛ بل قاءدتها: انتظار عالم الغيب؛ كما يكون في حالة الاستخارة، حتى ينظر بأى آية أو اسم يشار إليه من عالم الغيب؛ فيقرأ^(١) تلك الآية أو الاسم على طريقة مقررة عند أهل الفن.

وهذا ما قصدت إirاده في هذه الرسالة، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.^(٢)

(١) قوله: فيقرأ أى للمريض أو لنفسه؛ فهذا من الرُقَى المسنونة (٢) والفصل الخامس الذى يبحث فيه عن الحروف المقطعات خارج من الباب الرابع، كما يدل عليه هذا الاختتام، وكذا ليس بشامل فى الدرس فلذا حذفناه من الكتاب، إذ ليس فيه كبير فائدة.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على النبى الكريم وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين